عشبة الحياة

محمد بن عبدالله الفريح
كاتب ومفكر
@ malfriah

﴿كثيرًا ما نرى مشكلات ومعوقات لا حلول لها إلا بالخلاص والفكاك منها نهائيًّا، ونبذل الغالي والرخيص من أموالنا وأوقاتنا وأنفسنا لتحقيق ذلك، بينما هي في الحقيقة فرص سانحة لنعدل سلوكنا، ونقيّم أنفسنا، ونروضها، ونرممها من الداخل قبل أن نطلب من الآخرين ذلك﴾.

جرت أحداث هذه القصة في منتصف القرن الثاني الميلادي في بلاد الحكمة العظيمة (الصين)، حيث كانت هناك امرأة عجوز بلغت من الكبر عتيًّا، وقد رأت السنين تمر سريعًا وابنها الوحيد يكبر بين عينيها، فعرضت عليه أن يتزوج من إحدى بنات قريته، إذ كانت لها رغبة شديدة في أن ترى أحفادها قبل موتها، ونزولًا على رغبتها وإلحاحها تزوج الابن إحدى بنات قريته الهادئة الوادعة، وما إن تزوج، وحضرت زوجته لتسكن مع زوجها في بيت كان يضم والدته المسنة، حتى بدأت الغيرة الشديدة تأخذ من راحة الزوجين وعلاقتهما كل مأخذ، فأبت زوجته إلا أن تصبر، وأخذت على نفسها عهدًا بأن تصبر؛ وفاءً لزوجها الذي كان يحسن معاملتها، ويرفق بها، ومرت الأشهر تلو الأشهر، والزوجة تصبّر نفسها إلى أن جاء اليوم الذي قررت فيه أن لا حيلة في استمرار حياتها إلا بالتخلص من هذه العجوز إلى الأبد، فأشارت عليها إحدى قريباتها بأن تلجأ إلى أحد حكماء القرية المجاورة، ومن الغد باكرًا انطلقت إلى القرية المجاورة، متذرعة بأنها سوف تحضر بعض البذور من بعض المزارعين هناك، سارعت خطاها نحو حكيم القرية، وعندما وصلت إليه وجدته شيخًا طاعنًا في السن، بأن ذلك في تجاعيد وجهه وعينيه الغائرتين، وما إن لمحها حتى طلب منها أن تجلس، وترتاح قليلًا، وتشرح له مشكلتها، فانفجرت تبكي بكاءً شديدًا، وقصت عليه قصتها منذ زواجها، وعلاقتها المتوترة مع والدة زوجها المسنة، وكيف أنها تسيء معاملتها، وتعاملها بكل احتقار، فقال لها: وما تريدين مني عمله تجاه هذه المشكلة؟، فقالت له: إنني قررت أن أتخلص من هذه العجوز نهائيًّا، فإن إحدى قريباتي نصحتني بزيارتك، فلديك حل سحري لمثل هذه المشكلات، فقال لها: ليس هناك ما يمنع من مساعدتك، ولكنَّ هناك شرطًا مهمًا يجب الالتزام به قبل الشروع في مساعدتك، فقالت له: إنني مستعدة لعمل ما تريد مقابل مساعدتي على التخلص من هذه العجوز، فقال لها: يجب في البداية أن تغيري طريقة معاملتك لوالدة زوجك؛ كي لا تلفتي انتباه الناس عند موتها، فيشك فيك زوجك ومَنْ حولك بأنك من قمت بقتلها، فوافقت على الفور، وقال لها أيضًا: خذي هذه العشبة السامة، وقومي بغليها كل يوم باكرًا، وأعطيها والدة زوجك قبل خروجك للحقل، واستمري على هذا الأمر أربعة عشر يومًا، بعد ذلك ستموت في اليوم الخامس عشر، بعد أن يكون السم قد سرى في جميع جسدها، وعلى الفور أخذت الزوجة العشبة، وانطلقت بها لقريتها تنتظر الصباح على أحر من الجمر، وما إن أشرقت شمس صبيحة ذلك اليوم حتى قامت الزوجة بغلي جزء من العشبة، وقدمتها لوالدة زوجها، ما أثار حفيظتها واستغرابها الشديدين من هذه المعاملة التي لم تعتد عليها!!

استمرت الزوجة على هذا المنوال سبعة أيام، وكأنها سبع سنوات شداد، عندها لاحظت أن والدة زوجها بدأت تتغير معاملتها لها بشكل غريب، وصارت تسأل عن صحتها وعن تعامل ابنها معها، وما إذا كان يسيء معاملتها، أو يرغمها على العمل بشكل مرهق؟، فقالت لها الزوجة: إنه على العكس من ذلك تمامًا، وبدأت الوالدة تتعامل مع هذه الزوجة، كما لو أنها ابنتها، وأصبحت تقف بجانبها عند نشوب أي خلاف مع ابنها، وتطلب من ابنها أن يحسن معاملتها، وتقول لابنها: إنها لو أنجبت بنتًا، فلن تكون في مثل هذه الزوجة لها في حسن معاملتها وصبرها، أطبق صمت رهيب على المكان بعد هذه الكلمات من والدة زوجها، وأخذ الخوف والرعب من الزوجة حدًّا بعيدًا، فهي تعرف أن السم يسري في جسدها، وسيقضي عليها في غضون سبعة أيام كما أخبرها الحكيم، فأصابتها الحيرة الشديدة، وتمكن منها الهلع، فهي لا تريد لهذه العجوز أن تموت، فالأمر الذي كانت تريد موتها من أجله انتهى الآن، ولكنها لا تدري ماذا تفعل، فأشارت عليها قريبتها السابقة نفسها بأن تعود إلى الحكيم، وتستشيره لعله يجد لها حلًّا ومخرجًا، على الفور ذهبت للحكيم تستنجده ليجد لها حلًّا، لكنه أخبرها بأن الأمر قد انتهى، وأن العجوز سوف تموت لا محالة في غضون سبعة أيام، وعليها أن تستعد لهذه المرحلة من حياتها، وقال لها: ارجعي لي بعد سبعة أيام لنرى ماذا سنفعل، سأبذل ما في وسعي، ولكن لا أعدك بشيء، رجعت الزوجة بخيبة شديدة وحسرة لا تدري ماذا تفعل، وجلست تنتظر مرور هذه الأيام الثقيلة جدًّا على أحرّ من لهب النار، وكلما اقترب الموعد بدأ قلبها يزداد خفقانًا؛ خوفًا واضطرابًا، وفي اليوم الموعود رجعت للحكيم لعله يجد لها مخرجًا مما وضعت نفسها فيه، فأجلسها الحكيم، وهدّأ من روعها، وقال لها: اعرضي على قصتك مرة أخرى، فعرضتها بشكل مختلف عن سابقتها من حيث ثناؤها على والدة زوجها، وكيف كانت رفيقة بها وحسنة المعاملة، وأنها تقف في صفها عند أي خلاف ينشب مع زوجها، فقال لها الحكيم: وما الذي تغير عما سبق، فقد كنت مُصرّة على قتلها والتخلص منها، فقالت له: إن معاملتها تغيرت بشكل كبير منذ أن بدأت أعطيها العشبة بعد غليها، فقال لها الحكيم: توقفي الآن يكفي إلى هذا القدر، يبدو أنك متعبة جدًّا من هذا الأمر، وسأنهيه لك، اسمعي يا ابنتي، نحن البشر انعكاس لما نجده، بمجرد أن رأت أم زوجك حسن معاملتك ورفقك بها وصنيعك معها تعاملت معك بالمعيار نفسه، هذا هو حال الأسوياء من البشر، كثيرًا ما نبحث عن حلول لمشكلاتنا عند الآخرين، بينما هي في الحقيقة في أعماق أنفسنا، قالت: له، والسم الذي يجري في جسدها ماذا أصنع به؟! قال: لا عليك هذا ليس سمًّا، هذه عشبة عادية يستطيع أخذها كل واحد، ولن تلحق بها أي ضرر.

تعقيب:

كثيرًا ما نرى مشكلات ومعوقات لا حلول لها إلا بالخلاص والفكاك منها نهائيًّا، ونبذل الغالي والرخيص من أموالنا وأوقاتنا وأنفسنا لتحقيق ذلك، بينما هي في الحقيقة فرص سانحة لنعدل سلوكنا، ونقيّم أنفسنا، ونروضها، ونرممها من الداخل قبل أن نطلب من الآخرين ذلك.

وأنا أدون هذه الأسطر تذكرت عظمة الحديث النبوي الشريف الذي ترويه أم المؤمنين عائشة رضي اللّه عنها أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال: «إِنَّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلا زانَهُ، وَلا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلا شَانَهُ». رواه مسلم (رقم 2594).

ومرت على خاطري مقولة الشاعر والكاتب المسرحي الإنجليزي وليم شكسبير: «أصعب معركة في حياتك عندما يدفعك الناس إلى أن تكون شخصًا آخر!».

ودلف إلى عقلي أيضًا ما قاله جيم هينسون، مبتكر الدمى المتحركة: «أومن باتخاذ مواقف إيجابية تجاه العالم، وأملي أن أرى العالم بصورة أفضل من التي رأيته عليها، عندما أتيت إليه».

﴿كثيرًا ما نبحث عن حلول لمشكلاتنا عند الآخرين، بينما هي في الحقيقة في أعماق أنفسنا﴾

﴿مرت على خاطري مقولة الشاعر والكاتب المسرحي الإنجليزي وليم شكسبير: «أصعب معركة في حياتك عندما يدفعك الناس إلى أن تكون شخصًا آخرا!»﴾

﴿ودلف إلى عقلي أيضًا ما قاله جيم هينسون، مبتكر الدمى المتحركة: «أومن باتخاذ مواقف إيجابية تجاه العالم، وأملي أن أرى العالم بصورة أفضل من التي رأيته عليها، عندما أتيت إليه»﴾

الشرق بمنظار الغرب:

كتابات الرّحّالة الأوروبيين أنموذجًا

أ.د. عبد القادر شريف بموسى

أستاذ التعليم العالي بقسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب واللغات

جامعة تلمسان- الجزائر

كان الشّرق مصدر إشعاع حضاري منذ القديم، فقد بزغت على أرضه وبين شعوبه أهمّ الحضارات القديمة (الفرعونية والبابلية وحضارات بلاد الرافدين). ولعلّ من أهمّ هذه الحضارات الّتي أضاءت بنورها العالم بما فيه الغرب نفسه، الحضارة العربية الإسلامية، إذ كان لها فضل كبير على تقدّم الغرب وتطوّره، حيث أخرجته من ظلام الجهل والهمجية الّذي كان يعيش فيهما إلى نور العلم والمدنية.

ويُعدُّ احتكاك الأوروبيين بالحضارة الإسلامية في كلٍّ من إسبانيا وصقلية وجنوب إيطاليا من الدّلائل القاطعة الّتي تبرهن على مدى تأثير المسلمين في أوروبا ومدى فضلهم على تقدُّمها. لكن، وبدلاً من أن يردّ الغرب الجميل للشرق ولحضارته، ناصبه العداء، بل وأطلق عليه اسم "البرابرة ". إنّ أوّل ما يقوم به قومٌ حين يسكنون أرضًا جديدة، إنّهم يقومون برسم حدود بين أرضهم والجوار المباشر، وبين المناطق الّتي تقع وراء ذلك والّتي يُسمّونها منذ ذلك الحين "أرض البرابرة "[1]؛ وهذا ما قام به الغرب عند احتكاكه بالشّرق (ممثّلاً في الحضارة العربية الإسلامية)، إذ رسم حدودًا بينهما، فأطلق لفظة "غرب" على أراضيه والمناطق المجاورة لها، وفي الوقت ذاته أطلق لفظة "شرق" على كلّ المناطق الّتي تقع وراء ذلك. فالشّرق من ابتداع الغرب، بل يكوِّن ثُنائيًّا معه، فهو عكسه ونقيضه وهو في الوقت نفسه تجسيدٌ لمخاوف الغرب وإحساسه بالتّفوّق.

إنّ من الطبيعة البشرية أنّ الشيء المجهول والغامض يثير مخاوفها ويفزعها، فهي إمّا أن تستسلم له وتذعن، وهذا ما حدث مع الإنسان القديم حينما لم يستطع إدراك حوادث الطبيعة ومعرفة كُنهِها، فكانت البراكين والزلازل والصّواعق... تثير مخاوفه ورعبه ممّا دفعه إلى أن يُؤلِّه هذا المجهول ويُذعن له؛ فجعل للزلازل إلها وللفيضانات إلها آخر يتقرّب إليها بالقرابين والصّلوات.

أمّا الطريقة الأخرى للنّفس البشرية الّتي تسلكها تُجاه هذا الشيء المجهول، فهي أن تناصبه العداء، بل وقد تحاول مهاجمته إن قدرت على ذلك، حتّى تحمي نفسها منه وتحسّ بالأمان والطمأنينة؛ وهذا ما حدث مع شعوب أوروبا حين احتكّت بالشّرق وخصوصًا بعد أن أحسّت بتهديده لها من خلال فتوحات المسلمين لإسبانيا وصقلية وجنوب إيطاليا.

ومنذ هذه اللّحظة، أصبح الغرب «يرى في الشّرق مكاناً خطِرًا يتنامى فيه الإسلام وتتكاثر الأجناس الشريرة، وأمّا المسلمون فهم سُودٌ ذَوُو هيئات بشعة. وقد أدّت هذه البغضاء إلى إنشاء عداوة للإسلام أتاحت حماية عقول المسيحيين من الارتداد عن دينهم وحقنت المسيحية بشعورٍ من الاحترام للذات من خلال تعاملها مع مدنية أرقى منها في أَوْجُهٍ كثيرة »[2]. فحينما أحسّ الغرب بتفوّق الحضارة العربية الإسلامية عليه في كلّ المجالات، بما فيها التعاليم الدينية والقيَم الأخلاقية الّتي جاء بها

الإسلام، أصابه خوف شديد على دينه المسيحي من أن يَرتدَّ عنه كلّ من يتّصل بالشّرق (الحضارة الإسلامية)؛ ممَّا دفعه إلى ابتداع صورة أخرى للشّرق مخالفة لِما هو عليه في الحقيقة. فأصبح المسلمون – في عيون أوروبا – سودًا ذوي هيئات بشعة ومفزعة. فقد استطاع بهذا أن يكوِّن خلفية فكرية مشوَّهة للإنسان الغربي عن الشّرق، وذلك حتّى يضمن (الغرب) عدم الارتداد عن الدين المسيحي، الّذي يُعد – ولا يزال – الدّعامة الأساسية الّتي ترتكز عليها أوروبا في مواجهة العالم الإسلامي.

إنّ التعصّب الأعمى لدى أوروبا في القرون الوسطى لكلّ ما هو غربي ومسيحي، دفع بها – حينما رأت نفوذ الإسلام يزداد وحضارته تنتشر في ربوعها على الرّغم منها – إلى أن تجهر بالعداوة والبغضاء للحضارة الإسلامية من أجل الحدّ من انتشارها؛ بل وأصبحت ترى في الدولة الإسلامية خصمها اللّدود. «ومن هنا أصبح يُنظر للإسلام على أنّه إلغاءٌ للمسيحية، وأنّ رسوله محمدًا هو عدوٌّ للمسيح، وكان الغرب يرى في العالم الإسلامي عالمًا مضادًّا لأوروبا، وبذلك أصبح موضع الشّكّ والرّيبة»[3].

ولعلّ من أهمّ مظاهر هذا العداء والتعصّب، الحروب الصّليبية على العالم الإسلامي، والّتي دامت أكثر من قرنين حيث تجلّت فيها روح الحقد والكره للمسلمين وللإسلام بشكل سافر. وحتّى بعد ذلك بقرون عديدة، لم تستطع أوروبا التّخلّص من هذا العداء والحقد الدفينين اللّذين تُكنُّهما للشّرق والعالم الإسلامي على الخصوص؛ «ولهذا كان من السّهولة بمكان أن تتحوّل رغبتها القديمة في الوقوف في وجه خصمها الإسلامي إلى تصميم على السّيطرة، هذا التّصميم الّذي كان الأساس النّفسي للإمبرياليين منذ نابليون» [4] أثناء حملته على مصر سنة 1798م.

لقد أدّت الحملات الصليبية إلى تواتر الأخبار عن الشّرق وارتسام عددٍ من التّصوّرات المبالَغ فيها والمنسجمة مع المعطيات الثقافية المحلّية. ولعلّ من النتائج المباشرة لذلك، ظهور عدد من القصص الّتي عُرفت بـ"الرومانس"، إضافة إلى أعمال شعرية ملحمية يمكن وصفها إرهاصات لاستشراق أدبي سيستمر حتّى القرن العشرين. وقد انقسمت تلك الأعمال- المتولّدة عن الاحتكاك بالشّرق العربي الإسلامي- إلى قسمين رئيسين: هما الأعمال القائمة على الغرائبية أو الفانتازية (Le Fantastique) الّتي تصوِّر الشّرق بصور يغلب عليها عنصر الإثارة والتّشويق غير الواقعي؛ والأعمال الّتي تعكس الرّوح القتالية أو التعبوية، كما في الملاحم. ولعلّ أشهر هذه الملاحم المعروفة عند الغربيين الّتي تعود إلى بداية القرن الثاني عشر الميلادي "أنشودة رولاند – La Chanson De Roland" والّتي تصوِّر مشاهد من الصراع الإسلامي- المسيحي في إسبانيا مبرزة المسلمين بوصفهم أعداءً وثنيين يعبدون ثلاثة آلهة منهم الرسول محمد عليه الصلاة والسلام الذي وصلهم أنّ اسمه " ماهون "[5].

فهناك رؤية ما تكوّنت في أوروبا تجاه الشّرق. وقد وضعت الصّورة الأساسية لتلك الرؤية في القرن الثاني عشر،- إبّان الحروب الصليبية – ثم توسّعت في القرنين الثالث عشر والرّابع عشر، لتمتدّ حتّى العصر الاستعماري. هذه الرّؤية تنطلق من عداءٍ واسع للرّسول محمّد عليه الصّلاة والسّلام الّذي أوقفٍ بنبوءته الكاذبة – كما يزعمون – تطوّر الإنسانية باتّجاه المسيحية "بطبعتها الأوروبية طبعًا"؟!. وقد تطوّرت بعد ذلك النظرة الأوروبية "الغربية" إلى الإسلام، وإلى الشّرق، فأصبحت أكثر

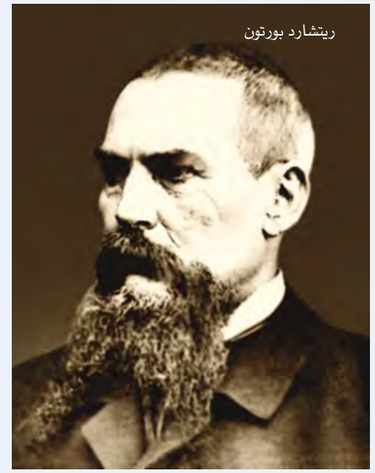

ريتشارد بورتون

كنغليك

مباشرة، حيث غدَا مفهوم الشّرق (الفارسي/التركي..) يعني حضارة مغايرة - بغضّ النظر عن القيمة التي تُعطى لها- وصارت النظرة العامّة "الشعبية"، تتراوح بين الشّرق المدهش والفنان، "شرق ألف ليلة وليلة"، وبين الشّرق المتوحش، البربري، الفظّ، العنيف. ولم تتغيّر النظرة الأوروبية إلى الإسلام، بوصفه دينًا متعصِّبًا، عدوانيًّا، بسيطًا وبدائيًّا [6].

وحتّى تستطيع أن تستعمر شعوب الشّرق دون أن تجد عراقيل من داخلها، أرسلت أوروبا الرّحّالين إلى الشّرق ليزوّدوها بمعلومات عنه وأخبار تكون ذريعة لها لاحتلاله وتزيد في الوقت نفسه من تعميق ذلك الكره والعداوة في نفوس الشعوب الغربية تجاه العالم الإسلامي بخاصّة، والشعوب الشّرقية بعامّة. وحتّى تجعل الشّرق كبش فداء، كان لا بدّ لها من أن تُلصق به صفات قبيحة وشرّيرة من أجل تبرير استعماره واضطهاده. فجاءت الرّوايات عن الشّرق لتُركّز تركيزًا متعمَّدًا على تلك السّمات الّتي تجعل هذا الشّرق مختلفًا عن الغرب، بل وتنفيه إلى عالم (الآخر) وتخفضه إلى مرتبة (الغير) الّذي لا صلاح له[7]. فمن بين الصّفات القبيحة والشّريرة الّتي وُصف بها الشّرق، صفة الخمول والفسق والعنف وعدم القدرة على أن يحكم نفسه بنفسه. كلّ هذه الصفات جعلت للغرب الإمبريالي مبرّرات تسمح له بالتّدخل فيه والتّحكم به، إذ تجعله يظهر وكأنّه منقذ الشّرق من الجهل والهمجية، وأنّه ما جاء إلى داره إلاّ ليحمل له الحضارة والمدنية.

ولعلّ من أهمّ الملاحظات الّتي تُلفت النظر بخصوص هذه الروايات الأوروبية عن ذلك الشّرق (الآخر)، مقولتان: إحداهما تتمثّل في الإلحاح على الادّعاء بأنّ الشّرق هو مكان الفسق والملذّات، والأخرى تتمثّل في أنّ هذا الشّرق هو عالم العنف المتأصّل[8]. وهاتان المقولتان كان لهما تأثيرهما الخطير على عقول الشعوب الأوروبية، إذ رسّختا فيها - ولا تزال إلى الآن - مفهومًا مشوَّهًا عن الإسلام والمسلمين. فالمقولة الأولى تحاول إفهامهم (الغربيين) بأنّ الدين الإسلامي ليس دينًا سماويًا منزّلاً من عند الله مثل الدين المسيحي، لأنّه يدعو إلى الفسق ويشجّع على طلب الملذّات، وهذا ما يخالف كلّ ما جاءت به الديانات السماوية؛ بينما تحاول المقولة الثانية - الّتي تركّز عليها هذه الروايات - أن تُنشئ في الذهنية الغربية صورةً مشوَّهة عن الشّرق، والعالم الإسلامي على وجه الخصوص. فهي تُظهر الإسلام على أنّه يدعو للعنف، وأنّ المسلمين ما هم في الحقيقة إلاّ همجيون وبرابرة يبحثون عن دماء البشر في كلّ مكان، ولا يتلذّذون إلاّ بسفك الدّماء، فهم أصل العنف ومصدره. فالإسلام دين عنف على خلاف الديانة المسيحية الّتي تدعو إلى السّلام والمحبّة، وبهذا فإنّه ليس دينًا سماويًا ولا ينبغي أن يدخل فيه النّاس؛ بل من المفروض أن يُحارب حتّى يُقضى على العنف المتأصّل فيه وعلى الفسق المنتشر فيه، ويُستبدَل بتعاليم المسيحية السّمحاء المسالمة وقيمها الأخلاقية الطاهرة. وفي سبيل القضاء على ذلك لا بُدّ من استعمال بعض العنف من الغرب تجاه الشّرق حتّى تنعَم البشرية بالأمان والسّلام، وتنتشر بين ظهرانيها سمات المحبة والفضيلة.

ولقد كان لهاتين المقولتين تأثيرهما الخطير ليس على عقول العامّة من الغربيين وحسب، وإنّما تعدّى خطرهما إلى الجيل الثاني والثالث من الرّحّالة الأوروبيين والمستشرقين إبّان العصر الرّومانسي ومابعده؛ هؤلاء لم يستطيعوا الفكاك من الخلفية المشوّهة (بكسر الواو وفتحها معًا) للشّرق الّتي زرعها الرّحالة الأوائل. فلا أحد يستطيع أن ينكر بأنّ الشّرق قد احتلّ مكانة أسطورية في جماليات العصر الرومانسي، كما كان خلفية شائعة تنطلق منها الروايات القوطية، أمّا حريم الشّرق أو نساء السّلطان وجواريه في الشّرق، فقد صُوِّرت في شكل غريب ومثير بقصد تسلية الجمهور الغربي. وقد تجسّد هذا الأسلوب في لوحة (أوجان دي لاكروا 1798 - 1863 Eugène Delacroix) " موت ساردانا بالو " 1827 - 1828 (La Mort de Sardanapale) الّتي استوحاها من قصيدة لبيرون تحمل الاسم نفسه. وقد صُدم المجتمع الأوروبي الّذي كان موجودًا في الشّرق من جرّاء ما قرأ عن العنف والخسّة والبذاءة، الّتي وضعت الشّرق في هذا السّياق. وقد كان لنقاد القرن العشرين مآخذ على الاستشراق لكونه مرآة إمبريالية مشوِّهة للشرق، حيث إنّها عكسٌ للثقافة الأوروبية لا لحقيقة الشّرق[9].

إنّ المقولة الأوروبية الّتي تركّز على فسق الشّرق ووَلَعه بالجنس لم تكن وليدة الرّحلات الأوروبية، بل قد «تَرافَق الشّرق دائمًا في الذهن الأوروبي بالتَّوقُّعَات الجنسية، إذ كان يَبرز في ثنايا النّصوص اللاّهوتية والأسطورية القديمة نموذج المرأة الغاوية: فهناك (ديدو Dido) في رواية "فيرجيل" تستقبل (إيناس Aeneas) في فراشها كما استقبلت كليوباترا أنطونيو في سريرها، وهناك (ميديا Medea) المتطرّفة في عواطفها وعنفها، إنّها الشّرقية، الهمجية الّتي تغوي وتصدّ في اللحظة الواحدة»[10].

ولقد جاء بعد ذلك الرّحّالة الأوروبيون ليركّزوا على أسطورة "الشّرق الجنسي". ويُعدّ (ريتشارد بورتون Richard Burton) واحدًا من هؤلاء، فقد كان «الشّرق في نظره: مجالاً محرّمًا، حيث النساء جوارٍ يمنحن ملذّات جنسية»[11]. ومن بين الرّحلات الأخرى الّتي تُعدُّ أُنموذجًا لهذا التشويه - والّتي تصوّر الشّرقي على أنّه مَثارٌ للسخرية ومدعاةٌ للتّسلية والازدراء معًا، وتصوّره ذليلاً دائمًا ومستسلمًا لمن هو أقوى منه – رحلة (كنغليك Kinglake) إذ يقول عن الشّرقي (الآسيوي) : «... يبدو أنّ الآسيوي يُكنّ شعورًا بالاحترام العميق الّذي يصل غالبًا إلى درجة العبادة، لكلّ من أساؤوا إليه بقسوة عنيفة... ولهذا كنتُ أرى كيف أنّ استسلامه وانصياع عقله كانا بلا حدود أمام فكرة القوّة »[12].

لقد كان لهؤلاء الرّحّالة النصيب الأوفر في إبراز الصّورة المشوَّهة للشرقي، كما كان لهم التأثير الكبير في زرع هذه الصّورة في الذهنية الغربية. فها هو الرّحّالة (بورتون Burton) يصف أحد أبناء السّند (الهند وباكستان حاليًا) بقوله: « ...إنّه كسول ولا مبال، وقذر، ومدمن، ومعروف بجُبنه في أوقات الخطر، في حين أنّه يصبح وقحًا عندما لا يكون ثمّة ما يخشاه، وليس لديه أيّة فكرة عن الصدق» 13.

إنّ الاتّهام الخطير الّذي يوجّهه الرّحّالة الإنكليز إلى الشّرقيين يخصّ إفساد الأخلاق: «فكلّ الشّرقيين يُعدون مولعين بالنقائص والآفات الأكثر انحطاطًا. ويُعدُّ العرب أناسًا شهوانيين وفُسّاقًا حتّى داخل الأماكن المقدّسة في الإسلام، وهذا ما يُعدّ تدنيسًا للمقدّسات وانتهاكًا للحرمات. ففي حوالي سنة 1820 وَسَمَ بعض الرّحّالة العربَ بالشذوذ الجنسي...إضافة إلى أنّه حتّى الخاصية الّتي أُسندت إلى الإسلام تفضّل اللاأخلاقية: فعلى حسب الرّحّالة ليس الدين هو الّذي يربّي الإنسان»[14].

فهذه الروايات عن الشّرق للرّحّالة الأوروبيين، جاءت في معظمها مشوِّهة لصورة الشعوب الشّرقية، تُصوّرها على أنّها مخلوقات همجية تُحرّكها الغريزة وتُسيّرها النّزعات الجنسية والعدوانية، وأنّها ذات بشرة داكنة ومفزعة، وهي لا تستطيع أن تصل إلى ذلك الصّفاء والنقاء اللّذين وصل إليهما العرق الأبيض (الأوروبي طبعًا)؛ بل إنّ هذه الروايات زادت في ترسيخ بربرية الإنسان الشّرقي وحيوانيته داخل المجتمعات الأوروبية من خلال التركيز على شدّة الاختلاف بينهما، ممّا يسمح لها باعتبار الشّرقي نوعًا آخر من الكائنات؛ فهو أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان.

وإذا ما استثنينا بعض الرّحّالة النّزهاء الّذين حاولوا تقديم صورة نزيهة وحقيقية عن الشّرق، فإنّ معظم روايات الرّحّالة الأوروبيين أنتجت صورة بشعة للشرق، كان من شأنها أن عزّزت السلطة السياسية بمختلف بنياتها داخل المجتمعات الغربية؛ وبالشكل نفسه عملت هذه السلطات السياسية على تعزيز هذه الصّورة وترسيخها لدى العامّة من الغربيين، وحتّى لدى المثقفين والرّحّالين أنفسهم. ولعلّ ما ذهبت إليه االدكتورة "رنا قباني"، يصف وصفًا دقيقًا الحالة الّتي كانت عليها كتابات الرّحّالة الأوروبيين في تلك العصور(عصر النهضة الأوروبية) من تأثّرها بثقافة العصر المهيمنة، إذ تقول: «ولكنّ هذا لا يعني أنّ جميع الرّحّالة الّذين تحدّثوا عن الشّرق قد أساؤوا تصويره، وإنّما يعني أنّ سوء التّصوير هو الّذي طغى، وهو الّذي أسر خيال عامّة النّاس في الغرب. إنّ قصص الرّحلات كانت على كلّ حال جزءًا من الاستشراق الّذي حرّض على قيام الإمبراطورية»[15]. ثمّ تضيف بأنّ «القوّة تحتاج دائمًا إلى المعرفة. ومن هنا تأطّرت الثقافة الأوروبية ضمن صورة مشوّهة عن الشّرق باعتبار أنّ الذوق المهيمن وغريزة الأسطورة كانت لهما الغلبة في نهاية المطاف»[16].

فلابدّ للاستعمار الأوروبي الإمبريالي - قبل أن يقوم باحتلال الشّرق - أن يكون مزوّدًا بكلّ المعلومات عن هذا الشّرق في مختلف ميادين الحياة، بدءًا بطريقة أكل شعوبه ولَهوها وكيفية عيشها، ووصولاً إلى طريقة الحكم عنده وأخبار حكّامه وخلافاتهم وحروبهم وإسرافهم وملذّاتهم.

وهذه المعلومات مهمّة جدًّا للقادة الأوروبيين، حتّى يكونوا على علم ودراية بكلّ ما يجري فوق الأرض الّتي ستطؤها أقدامهم. وكي تصل إليهم هذه المعلومات كان لا بدّ من بعث رحّالة من بني جنسهم إلى هذه الأقطار البعيدة والشاسعة، حتّى يزوّدونهم بكلّ ما يحتاجونه عن الشّرق الغامض والمُبهَم.

ريتشارد وليام سوثرن

وكي ينال هؤلاء الرّحّالة استحسان دولهم الّتي أمدّتهم بالمال، وسهّلت لهم مهمَّتهم، كان لابدّ لكتاباتهم أن تتضمّن تلك الصور المشوّهة للشرق والّتي تُبرزه همجيًّا وبدائيًّا وغريزيًّا حتّى يكون ذلك مبرّرًا لقادتهم الغربيين في احتلاله ذات يوم تحت شعار "تقديم الحضارة إلى شعب متخلّف". بل إنّهم - الرّحّالة الأوروبيين - مضطرّون إلى تأكيد هذه الصّورة المشوّهة الّتي جاء بها من قبلهم الرّحّالة الأوائل، الّتي رسخت في أذهان الشعوب الغربية حتّى أصبحت هي الذّوق المسيطِر عليهم. لأنّه إذا ما حاول بعضهم مخالفة ما أَلِفهُ النّاس عن الشّرق منذ مدّة، وأن يكون نزيهًا في كتاباته، فسيكون مصير ما ألَّفه، الإهمال والاستهجان وربّما السّجن أو الموت، متّهمين إيّاه بالعمالة للشرق. ولهذا فإنّ بعضهم كان مضطرًّا لتلفيق الأكاذيب عن الشعوب الشّرقية وطريقة حياتها، هذه الأكاذيب ما هي إلاّ نسخة طبق الأصل مع قليل من التغيير للكتابات والأساطير الّتي جاء بها الأوائل عن الشّرق. إذ من المألوف دائمًا أن يُقال بصدد الاستشراق: إنّ الغرب يعرف عن الشّرق أكثر ممّا يعرف هذا الشّرق عن نفسه، الأمر الّذي من شأنه أن يفتح مجرًى محدَّدًا سلفًا للكتابة، ممّا يؤدّي إلى تقييد المراقب الغربي بل وجعله في كثير من الحالات أسيرَ ما قرأ [17].

فإذا كان هؤلاء الرّحّالة مقيَّدين بآراء من سبقهم وبالثقافة السائدة في عصرهم، فهم - ومن ورائهم الغرب وإلى حدّ القرن الثامن عشر على الأقلّ كما بيّن ذلك بلباقة (R.W.Southern) - كانت لديهم فكرة معقّدة ومبهمة عن أحد أشكال الثقافة الشّرقية والّتي هي الثقافة الإسلامية، لأنّ مفهوم الشّرق يجتذب دائمًا على ما يبدو، تداعيات من الأفكار الّتي لم تكن محدّدة، لا من طرف ذلك الجهل المطلق عن الشّرق ولا من طرف المعلومات الأحادية المصدر الّتي كانوا يتحصّلون عليها[18].

ولقد كان أحد التطوّرات المهمة في استشراق القرن التّاسع عشر يتمثّل في تكرير الأفكار الجوهرية حول الشّرق، حواسّيته وميله إلى الطغيان، تخلّفه ولاعقلانيته، وعادة غياب التّنظيم والدّقة لديه، وترسيخ هذه الأفكار إلى الحدّ الّذي صار معه استخدام كاتب للفظة "شرقي" إشعارًا كافيًا يحدّد للقارىء الغربي هويّة جسد معيّن من المعلومات حول الشّرق. هذه المعلومات جاءت من خلال المضامين الّتي كانت تتوارى في ثنايا كتب الرّحّالة الأوروبيين والكتب الاستشراقية الغربية الّتي أُلِّفت في الآداب والعلوم، والّتي يتصوَّر فيها الشّرق على نحوٍ خيالي خرافي، يُظهره بأنّه متخلّف، ميّالٌ إلى الطّغيان، ذو عقلية منحرفة، وعرق دوني، وإنّه غير جدير بالحياة الحرّة، وينبغي على الغرب أن يستحوذ عليه ويأسره ويسوده.[19]

فهذه الصّورة المبهمة والغامضة للشرقي سمحت للغرب بأن يُسقط الجانب السلبي فيه ويرمي به على الشّرق، خصوصًا صفة الشّبق الجنسي والعنف المتأصّل. فهاهو ذا أحد الكتّاب الغربيين (ريموند شواب Raymond Schwab) «يعتبر بأنّ كلمة شرقي كانت مرادفًا لِـ" غريب " و" غامض" وعميق ومَنَوي»[20].

وما هذه المقولة من وجهة التحليل النفسي إلاّ تعبير عن نفسية الأوروبي، إذ إنّ الكثير من دوافعنا وغرائزنا الفطرية (بما فيها غريزة الجنس) - بعدما تُكبت في اللاشعور ولا يُسمح لها بالظهور في الوسط الاجتماعي – تتّخذ لها أشكالاً أخرى وطرقًا غير مباشرة، فتصبح بذلك غامضة وعميقة عن شعور الفرد، وخصوصًا عن الأنا الأعلى(Sur-Moi) الّذي هو الرّقيب الأخلاقي في الشخصية، وذلك حتّى تجد لها متنفّسًا في المجتمع أو وسيلة تظهر فيها بشكل تقبله القيم الاجتماعية والخلقية. ولعلّنا لا نبتعد عن المنطق إذا ما قلنا: إنّ إطلاق صفة "منوي" أو "جنسي" على الإنسان الشّرقي الّذي هو غامض ومبهَم ما هي إلاّ عملية إسقاط **(Projection) للجانب السلبي (الجنسي) في شخصية الغربي على الشّرقي؛ لأنّه - الأوروبي- لا يمكن أن يعترف بها بينه وبين نفسه. فهذه الدوافع الجنسية غامضة في شخصيته غموض الشّرقي وغريبة وعميقة في الوقت نفسه غرابة ذلك الشرقي وعمقه كذلك، ممّا يجعل الغربي يحسّ بالدونية والنقص إذا ما اعترف بهذه الميول الجنسية؛ وهذا ما يجعله يُسقط ويرمي بهذه الصّفات - الّتي تَحُطُّ من شأنه - على الآخر (الشّرقي).

فالكبت الجنسي الّذي كان يعاني منه الغربي جعله يصف الإنسان الشّرقي بالشّبق الجنسي، وذلك حتّى يجد له تفريغًا ومتنفّسًا عمّا يَكبته ويرغب فيه. ولعلّ أصدق دليل على ذلك ما كان يمارسه الرّحّالة الأوروبيون من مُتع جنسية في الشّرق حينما يجدون الفرصة للتعبير عن هذا الكبت - الّذي يعانون منه - خارج مجتمعهم وأهلهم. ومن بين هؤلاء الرّحّالة (بورتون Burton) إذ «كانت الحرية الجنسية واحدة من حريات تطلّع إليها: ففي الهند مارس (بورتون) أوّل اتّصال جنسي كامل له، وكما فعل أكثر أقرانه، بحث عن خدمات امرأة محليّة تُلبّي له... احتياجاته المادية دون أن يلتزم حيالها بأيّ رباط أدبي

أو عاطفي، وبذلك تكون هي مدبّرة منزله وهي متنفّسه الجنسي جميعًا»[21].

ولا يمكن لنا أن نمرّ على الرّحّالة (بورتون Burton) دون أن نستشهد ببعض ما كتبه هو بنفسه عن الحضارة العربية الإسلامية وخصوصًا فن العمارة الإسلامية المرتبطة بالمسجد، حيث يحاول في الفصل السادس – تحت عنوان المسجد – من كتابه "رحلة بورتون إلى مصر والحجاز – الجزء الأول" إرجاع كلّ عناصر العمارة الإسلامية إلى حضارات سابقة أو معاصرة ونفي أيّ خصوصية للعمارة الإسلامية، إذ يقول في هذا المعنى: "فالنزعة التوفيقية Syncretism للمعماريين – والتي هي نتاجٌ للصدفة والاندفاع، والغلوّ واللاّمبالاة – لاقت أعينًا جاهلة غاية الجهل، بحيث لا يجرحها أن تقع على كلّ مخلط هجين يعوزه التناسق. لقد قام هؤلاء المعماريون بتخليد العناصر المعمارية المتنافرة فيما يُسمّى بالنّمط العربي أو الإسلامي Saracenic Style مع أنّ جميع عناصر هذا النمط مُنتحَلة من الأنماط المعمارية البيزنطية، ومكرّرة مُعادة في النمط المعماري القوطي، الذي هو فرع من النمط الإسلامي"[22]. ويضيف في الكتاب ذاته بالطريقة العدائية واللاّموضوعية نفسها متحدّثًا عن فن عمارة المسجد قائلاً: "وأعتقد أنّه لا جديد في المسجد العربي (الإسلامي) فهو مجرّد إحياء غير واعٍ للأشكال المعمارية الّتي استُخدمت منذ عصور ممعنة في القدم"[23].

يحمل هذا النوع من الكتابات جانبًا دلاليًّا خطيرًا، فهو يُحيل بطريقة مباشرة وسافرة إلى أنّ فن العمارة الإسلامي عبارة عن سرقات مبتدئة من أنماط العمارة البيزنطية وعمارات حضارات سابقة. بل ويحاول أن يُزيل كلّ خصوصية وقدسية أهم عنصر في الحضارة العربية الإسلامية، ألا وهو المسجد، وذلك بربط عمارته بعمارات حضارات سابقة، ممّا يُحيل بطريقة خطيرة في أذهان الغربيين إلى أنّ الدين الإسلامي ليس دينًا سماويًّا جديدًا ولكنه دين مُنتحل من ديانات سابقة مثله مثل عمارته.

وأذهب كذلك إلى ما ذهب إليه مترجم هذا الكتاب لِـ (بورتون Burton)، الدكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ في تعليقه، فَـ(بورتون Burton) يشير في قوله هذا إلى أنّ هذا الاقتباس المباشر من الأنماط المعمارية البيزنطية واضح تمامًا في مساجد القاهرة القديمة. ولا نُنكر تأثير الحضارات بعضها في بعض الآخر، لكن إنكار خصوصية كلّ حضارة فيه تجاوز كبير وخطير. فهل أخذ المسلمون من الحضارة البيزنطية فكرة "مكان الوضوء" الّذي لا يخلو منه مسجد؟ بالطبع لا، لأنّ الوضوء خاصية إسلامية. كما أنّ فكرة الأروقة الأربعة في المسجد فرضها وجود مذاهب إسلامية أربعة، ولو كانت خمسة لكانت الأروقة خمسة. إذن ما دخل الحضارة البيزنطية بعدد المذاهب الإسلامية؟؟ [24].

وأُنهي استشهادي بأقوال (بورتون Burton) وما كتبه في رحلته عن شهر رمضان وتأثيره السلبي على المسلمين لما في هذه الكتابات من خطورة كبيرة في تشويه صورة المسلمين وصورة شهر الصيام في أذهان الغربيين. فقد كتب يقول: "فأصوات المسلمين الصائمين الّتي لم تكن أبدًا – قبل رمضان – من بين أرقّ الأصوات، قد اكتسبت – خاصّة في وقت ما بعد الظهيرة – بُحَّة مفزعة ونغمة كنغمة صرير الباب. فالرجال يلعن بعضهم بعضًا، ويضربون النساء. أمّا النّسوة فيلطِمن الأطفال ويُسِئْنَ معاملتهم. أمّا الأطفال فهم بدورهم يتضرّعون ويعاملون القطط والكلاب بقسوة... والمساجد غاصّة بالناس العابسين المتذمّرين، يتربّص كلّ منهم بالآخر، مع أنّهم يسيرون في طريق يرضوْن الله به "[25].

يجعل بورتون من شهر رمضان المقدّس عند المسلمين، شهر العداء والتّلاعن والضرب واللّطم والتّربّص بالآخر. بل ويُعمّم ذلك على كلّ المسلمين دون استثناء. فالرجال يلعن بعضهم بعضًا ويضربون نساءهم والنساء يلطمن أطفالهم والأولاد يقسون على القطط والكلاب. بل تصبح المساجد مكان العداء والتّربّص بالآخر للانقضاض عليه. هذا ما يحاول هذا الرّحالة زرعه في أذهان مواطنيه الغربيين عن المسلمين وعن إسلامهم ومكان عبادتهم. فتعميمه لم يستثنِ الأطفال الّذين ينقضّون بقسوة على القطط والكلاب. هذه المبالغة الكبيرة والتعميم المضلّ لا يمكن لنا أن نجد لهما تفسيرًا مقنعًا إلاّ من خلال ربطهما بالنظرة الاستعمارية للشرق من طرف الحكومات الغربية التي موّلت رحلات أمثال (بورتون Burton) كي يقدّموا لها صورًا مشوّهة عن الشرق المسلم تُبرّر أمام شعوبها حتمية الاعتداء عليه واستعماره تحت غطاء درء خطره المتنامي وتقديم حضارة لشعب همجي ومتخلّف.

وقد وقفت بعض الشيء عند الرّحّالة (بورتون Burton) لأنّ كتاباته المضلّلة عن الشرق المسلم ودينه الإسلامي بقي أثرها الخطير والمؤثّر في أذهان الغربيين (دولاً وحكومات وشعوبًا) في أثناء تعاملهم معنا إلى غاية اليوم ونحن في الألفية الثالثة.

كما يجب أن ننتبه إلى أنّ المفكّرين الغربيين – حتّى هم كذلك – لم يروا من الشّرق إلاّ ما أراد هذا الشّرق أن يبديه لهم، أو بالأحرى ما أرادهم أن يبحثوا عنه فيه، بعملية اصطفائية "غير علمية ولا موضوعية". وفي الحالين أنشأ هؤلاء صورة للشرق إنشاءً يعتمد على ما ترسّب في الذاكرة الجمعية الغربية من مقولات، وعلى ما صنعه الخيال الشعبي من تصوّرات، شكّلت الفضاء لمجمل الأفكار الغربية، وشكّلت من ثم أداة ضغط لم يستطع المفكّرون الغربيون الفكاك من إسارها، أو التّحرّر من ربقتها. وهكذا كان هؤلاء يرون ما أسقطه اللاّوعي عندهم، أكثر مما يرون بأعينهم ومنطقهم العقلي، فيقومون بعملية انتقائية فجّة لما جاؤوا يبحثون عنه. فالشّرق عند بعضهم موطن الحكمة، وبلاد شهرزاد وشهريار، والسندباد، وشعبه مجموعة من الشعراء والحكماء والفلاسفة. بينما كان عند آخرين بلاد التّخلّف، والجمود، والسّكون، وشعبه مجموعة من الكسالى، والمتعصّبين، المحبّين للعنف والمتعطّشين للدّماء. وفي الحالين– وكما يبدو واضحًا– فإنّ الشّرق عبارة عن عناصر مشتّتة، منمَّطة، لا رابط بينها، تمثّل لحظات معزولة من سياقها الموضوعي، لخدمة الأفكار المسبقة الّتي تتحكّم بهؤلاء الباحثين وبأبحاثهم[26].

ومن هنا نستطيع القول إنّ الشّرق قد حقّق كلَّ الاحتياجات الّتي أرادها الغرب منه، سواء الاحتياجات النّفسية منها أو الدينية أو الاجتماعية. فكلمة " شرق " تُثير فورًا تداعيات كثيرة في ذهنية الأوروبي مثل: الشّرقي المسلم، المحتال، ألف ليلة وليلة، الصّحراء، الرقص، الحروب الصليبية، الإنجيل، الجواري، الحريم ...إلخ.

ومع هذا كلّه، فمن الإنصاف أن نذكر بأنّه قد ظهر من الأوروبيين مَن اعترف بعظمة الشّرق؛«فبعد دراسته للّغة العربية، اعترف"هيردر (1744 – 1803)" Herder بعظمة اللغات السّامية وأهمّها العربية والعبرية والآرامية والحبشية. واطّلع على أمثلة قليلة من الشعر العربي، فظهر له أنّ الشعر أجمل تعبير عن ثقافة شعب من الشعوب»[27]. لكنّ الملاحظة الّتي يمكن أن نضيفها هنا، وهي أنّه مع هذا الاعتراف الموضوعي والنّزيه إلاّ أنّ هذا القول مع غيره من الأقوال، جاء ليرسم صورة أخرى عن الشّرقي، وإن كانت في الحقيقة صحيحة فهي من خلال التأويلات المتعمّدة من بعض الغربيين، أخذت منحىً آخر من التشويه: فهي صورة الشّرقي الّذي يعشق الشعر وينشده بل ويجعله ترجمان أحاسيسه الدفينة وعواطفه الجياشة مثل عاطفة الحب. فأشعار العرب على وجه الخصوص مليئة بالغزل والحب. لكنّ بعض التأويلات المتعمّدة من الغرب جعلت الشعر العربي محصورًا فقط في الحبّ والغزل والمجون وطلب اللذّة لتصل إلى أنّ الشّرقي جنسي حتّى في شعره يبحث عن اللّذات الحسّية.

ولا يمكننا أن نختم هذه الدّراسة دون التّعرّض إلى أحد أهمّ المفكّرين الغربيين المعاصرين الّذين اعترفوا بعظمة الشّرق، وفضحوا خرافات بلدانهم وأساطيرها الخاصّة بمدنية الغرب وحضارته ودونية الشعوب الشّرقية. هذا المفكر الغربي هو "روجيه غارودي "؛ فهو يعيب على بلاده النظرة الأحادية الّتي بها تحكم على الحضارات الأخرى، فتَسمُها بالتخلُّف والبدائية، لأنّها لم تُساير طريقتها وتَتَّبع منهجها، فيقول: «إنّ الغرب ينصِّب نفسه قاضيًا على جميع الحضارات الأخرى- لأنّه يعتبر أنّ المسار الّذي يتبعه مثالي، وأنّه المسار الوحيد الممكن- ويحكم ومن ثم على شعب وحضارة وعلم أو تقنية بأنّها بدائية أو نامية أو متخلّفة، وفقًا لنقطة وجودها على هذا المسار، أي وفقًا لكثرة أو قلّة تشابهها معها»[28]. بل إنّ هذا المفكر الشجاع لَيسخر من المؤرخين الغربيين حينما يطلقون لفظة "الغزوات البربرية" على غزوات البرابرة لروما وسقوطها في أيديهم عام 476م وعلى غزوات أخرى، بينما يبدّلون هذه التسمية – وهذا ما يثير عجبه وسخطه – عندما تكون الغزوات من صنع الأوروبيين، فيصبح اسمها " الاكتشافات الكبرى "[29].

ولعلّ هذا أكبر دليل يقدّمه شاهد، على همجية الغرب وأحادية تفكيره وتلاعبه بالمعلومات والأحداث التاريخية، الّتي تظهره على أنّه حاملُ الحضارة ومكتشف القارات، بينما من جهة أخرى، تُظهر الآخر (الشّرقي) همجيًّا بدائيًّا ومتخلّفًا. لكنّ هذا المفكّر يحاول أن يُزيل بعض ما لُفِّق لصورة الشّرقي والحضارة الشّرقية – وخاصة الحضارة الإسلامية – من صفات لا تَمُتُّ إليها بصلة الّتي ما تزال راسخة في أذهان الكثير من الغربيين. فقد اعترف صراحة بعظمة الحضارة العربية الإسلامية وبمدى تأثيرها على مدنية الغرب إذ يقول في ذلك: «إنّ الحضارة العربية الإسلامية لقّحت الماضي وهيّأت المستقبل طوال ألف سنة. ونقلت إلى أوروبا – عبر إسبانيا وصقيلية – ثقافة حملت مسؤوليتها ألف عام، ومارست تأثيرها على الغرب، بترجمة الآثار الإسلامية إلى اللاتينية... إنّ هذه الآثار الآتية من إسبانيا وصقيلية رسمت منعطفًا في رؤية الغرب للعالم»[30].

ومع أنّه قد ظهرت نزعة غربية تحاول فهم الشّرق من جديد فهمًا مبنيًّا على الدراسة الموضوعية لثقافته وحضارته فإنّنا يجب ألاّ ننسى بأنّ غالبية روايات الرّحلات الأوروبية عن الشّرق شَابَها التّحامل وداخَلَها الافتراض. فلا يُنْكَر بأنّ هذه الروايات أدّت بشكل أو بآخر إلى توسيع معرفة الغرب للعالم؛ إلاّ أنّ هذه المعرفة كانت مشوَّهة خدمت إلى حدّ بعيد الاستعمار ورؤيته الإمبريالية والتسلّطية. وللأسف لا يزال بعض هذا التشويه موجودًا بيننا حتّى اليوم بالرّغم من زوال الاستعمار منذ مدّة. ولعلّ أصدق ما يدلّ على بقاء هذه الخلفية الذهنية المشوّهة عن الشّرق لدى الغربيين هو ما يحدث الآن ونحن في القرن الواحد والعشرين، حيث ما يزال الشّرق– والإسلام على وجه الخصوص– يُوسم بالعنيف والشهواني، بل ظهرت صفة أخرى ألصقها هؤلاء بالإسلام والمسلمين والّذين هم منها بَراء، هذه الصفة هي الإرهاب. فإذا كان العداء للإسلام جزءًا لا يتجزّأ من البنية العقلية للشعوب الغربية والرّحّالة الغربيين في القرون الماضية، فإنّه لا يزال كذلك – ونحن داخلون على الألفية الثالثة – ضمن البنية العقلية للإنسان الغربي واللاشعور الجمعي***(Incocscient Collectif) الآن. ولا أَدَلّ على ذلك ما يحدث الآن في البلدان الإسلامية وما يلاقيه المسلمون في العالم من حصار واستئصال تحت غطاء القضاء على الإرهاب الدولي الّذي يمثّله هؤلاء.

المراجع المعتمدة في الدراسة:

1 – ينظر: Edward Said : L'Orientalisme : l'Orient crée par l'Occident - Traduit par : Catherine Malamoud – Editions du Seuil – Paris – 1980 – p 70.
2 – رنا قباني– أساطير أوروبا عن الشّرق: لَفّقْ تَسُدْ– ترجمة: د. صباح قباني– دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر – دمشق– الطبعة الأولى– سنة 1988 – ص 36.
3 – المرجع نفسه – ص 19.
4 – المرجع نفسه – ص 19.
5 – ينظر : د. ميجان الرويلي و د. سعد البازعي– دليل الناقد الأدبي – المركز الثقافي العربي– الدار البيضاء (المغرب) وبيروت (لبنان) – الطبعة الثانية – 2000 – ص30.
6 – ينظر : محمد راتب الحلاق – نحن والآخر: دراسة في بعض الثنائيات المتداولة في الفكر العربي الحديث والمعاصر الشّرق/الغرب× التراث/الهوية × الممكن/الواقع– منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق –1997– ص15.
7 – ينظر : رنا قباني– أساطير أوروبا عن الشّرق – مرجع سابق – ص 19 و 20.
8 – ينظر : المرجع نفسه – ص 19 و 20.
× – لوحة أوجان دي لاكروا – Delacroix " موت ساردانا بالو– La Mort de Sardanapale " الّتي رُسمت ما بين سنتي 1827م و1828م وهي لوحة زيتية على قماش بطول 395 سم وعرض 495 سم، توجد الآن في متحف اللوفر بباريس (Musée du Louvre، Paris).
9– ينظر: دونكان هيث، جودي بورهام – الرومانسية – ترجمة: عصام حجازي– مراجعة وإشراف وتقديم: إمام عبد الفتاح إمام – المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة – الطبعة الأولى 2002 – ص161.
10 – رنا قباني– أساطير أوروبا عن الشّرق – مرجع سابق – ص 46.
11 – المرجع نفسه – ص 22.
12 – المرجع نفسه – ص 25.
13 – المرجع نفسه – ص 25.
14 – Joelle Redouane – L'Orient arabe vu par les voyageurs anglais – Office des Publications Universitaires (O.P.U) – Alger – 1988 – p 139.
15 – ينظر : رنا قباني – أساطير أوروبا عن الشّرق – مرجع سابق– ص 26.
16 – المرجع نفسه – ص 27.
17 – ينظر : المرجع نفسه – ص 27.
18 – ينظر : Edward Saïd – L'Orientalisme – مرجع سابق – ص72.
19 – ينظر: باقر بري – إضاءات على كتاب الاستشراق لإدوار سعيد – دار الهادي للطباعة والنشر – بيروت – الطبعة الأولى 2002 – ص61.
20 – المرجع نفسه – ص 67-68.
×× – الإسقاط: Projection: هو عملية هجوم لاشعورية يحمي بها الإنسان نفسه من خلال إلصاق عيوبه وأخطائه ونقائصه ورغباته المحرّمة أو المستهجنة بالآخرين. ويمكن اعتبار ذلك عبارة عن لوم للآخرين على ما فشل هو فيه، بسبب ما يضعونه أمامه من عقبات وما يُوقعونه فيه من زلاّت أو أخطاء. وعلى سبيل المثال إنّني أكره شخصًا ما ولكنّي أقول للآخرين هو يكرهني؛ بهذه الطريقة أتخفّف من إثمي. وبالمعنى التحليلي النفسي المحض، يدلّ الإسقاط على العملية الّتي ينبذ فيها الشخص من ذاته بعض الصّفات والمشاعر والرّغبات وحتّى بعض"الموضوعات " الّتي يتنكّر لها أو يرفضها في نفسه، كي يموضعها في الآخر، سواء أكان هذا الآخر شخصًا أم شيئًا. فالإنسان، إذا زاد ضغط الدوافع أو ضغط المُثُل على ذاته إلى درجة يشعر معها بالقلق والتوتّر، فإنّه يحاول أن يخفّف من هذا العبء النفسي الثقيل وذلك بأن ينسب هذا العبء إلى مصدرٍ في العالم الخارجي.فالفرد الّذي يخاف من نزعاته و ميوله العدوانية والجنسية، تلجأ الأنا داخل ذاته إلى التّخفيف من حدّة هذه الميول ووطأتها حين تنسبها إلى الآخرين، أي أنّ الآخرين هم الّذين يميلون إلى العدوان والجنس، وليس ذات الفرد. لمزيد من التوسع يراجع:
– جان لابلانش، ج . بونتاليس– معجم مصطلحات التّحليل النّفسي– ترجمة: مصطفى حجازي– ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر– الطّبعة الاولى– –1985 ص70.
21 – ينظر : رنا قباني – أساطير أوروبا عن الشّرق – مرجع سابق – ص 84.
22– ريتشارد ف. بيرتون – رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز – ترجمة وتعليق: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – د.ط – 1994 – الجزء1 – ص 85-86.
23– المرجع نفسه – ص 86.
24– يُنظر: المرجع نفسه – ص 86.
25– يُنظر: المرجع نفسه – ص 72.
26– ينظر: محمد راتب الحلاق– نحن والآخر – مرجع سابق – ص 16 –17 .
27 – ينظر: برند مانوئيل فايشر – الشّرق في مرآة الغرب – دار سراس للنشر (تونس) وديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر – سنة 1983 – ص 65.
28 – روجيه غارودي – وعود الإسلام – الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – الطبعة الأولى 1984 – ص 104.
29 – ينظر: المرجع نفسه – ص 21.
30 – المرجع نفسه – ص 139.
***– اللاشعور الجمعي Incocscient Collectif – هو، بالمعنى الّذي حدّده " يونغ " : ما في لاشعور الفرد، ربما يكون من أصل سلفي أي يرجع للأسلاف. وهو مجموع الصفات غير الشعورية الّتي لم يكتسبها الفرد بل هي موروثة. وهي غرائز بما هي حوافز على القيام بأفعال تقتضيها ضرورة ما، دون أن تتدخّل الواعية (الشعور) في استشارتها. فالغرائز، والنماذج البدئية « Archétypes » مجتمعة، تشكّلُ اللاشعور الجمعي الّذي لا يتكوّن من محتويات فردية خاصّة فقط، بل ومن محتويات جماعة أو أمّة أو جنس بشري معيّن ويتكوّن كذلك من محتويات عالمية ذات حدوث نظامي.
لمزيد من التفصيل، يمكن مراجعة :
– كمال الدسوقي: ذخيرة علوم النفس – الدار الدولية للنشر والتوزيع – القاهرة، الجزء الأوّل، ص 695.
و كذلك كتاب:
– كارل غوستاف يونغ :علم النفس التحليلي– ترجمة وتقديم: نهاد خياطة – دار الحوار– دمشق– الطبعة الأولى سنة 1985 ص293.

الإفصاح عن الذات

د. عبدالرحمن بن سليمان النملة

عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام
محمد بن سعود الإسلامية

كل منا يبحث عن صديق وفي يبث له مكنون نفسه بحرية وتجرد، ذلك أن مناجاة الأصدقاء تزيل الكثير من الهم، لأنها تبعث على الراحة، وإعادة التوازن. لذلك اهتم الباحثون في الدراسات النفسية، وتحديدًا في مجال الصحة النفسية بموضوع الإفصاح عن الذات Self–disclosure بوصفه يمثل دور الوسيط النفسي لتوافق الأفراد وصحتهم النفسية. إن مفهوم الإفصاح عن الذات يعد محكًا لتقييم الشخصية السوية لما له من فوائد كثيرة في تنمية وتطويرها المهارات الاجتماعية، وتحسين علاقات الفرد مع الآخرين، فإفصاح الفرد وتعبيره عن ذاته يسهم في تحقيق فهم متبادل بين الأفراد في العلاقات التفاعلية مما يؤدي إلى تقوية هذه التفاعلات الاجتماعية والعلاقات البينية بين الأفراد.

ويسهم الإفصاح عن الذات في تحسين مستوى الصحة النفسية لدى الفرد بصفة عامة، حيث يُعدُّ، حسب العديد من الدراسات بمثابة عامل وقائي ونقطة محورية في التدخل للوقاية وعلاج بعض الأمراض والاضطرابات النفسية، وخاصة ما يتعلق بإيذاء الذات لدى المراهقين من الجنسين.

ويرى بعض الباحثين أن "الإفصاح عن الذات يساعد في تحقيق فهم أفضل للفرد عن ذاته، كما تبين ارتباطه إيجابيًا بالتقدير الإيجابي للذات وبالترابط الأسري"[1] ويعرف الإفصاح عن الذات بأنه "عملية الكشف عن الذات وإظهارها بحيث يتمكن الآخرون من التعرف عليها وإدراكها، ويتضمن هذا الكشف المشكلات الاجتماعية والنفسية والصحية والاقتصادية، والطموحات المستقبلية والآراء والاتجاهات وبعض الأسرار الخاصة والأسرية"[2] .

ويساعد إفصاح الفرد عن ذاته على التواصل الجيد مع الآخرين والتفاعل الإيجابي معهم، خاصة إذا تم الإفصاح عن خبرات الفرد ومشاعره للآخرين بشكل متبادل مما يولد الشعور بالقرب والتواد مع الآخرين.

والإفصاح عن الذات يُعدُّ عملية يقوم الفرد من خلالها بإفشاء بعض المعلومات الشخصية لفرد آخر دون غيره من أفراد المجتمع، فهو بذلك يعكس طبيعة العلاقة التبادلية للاتصال الشخصي. فعندما يفصح الطرف الأول عما يدور في خلده ويظهر الطرف الثاني الاهتمام والتفهم لما يقوله زميله، فإن عملية الاتصال تحدث بين الطرفين بشكل آني ومستمر. ويعتمد الفرد على خبراته السابقة في اختيار الشخص المناسب لهذا النوع من الاتصال الشخصي، فكلما ازدادت ثقتنا في شخص ما، كلما ازداد مقدار ما نفصح له من معلومات عن ذواتنا، وعادة ما تكون هذه الثقة مبنية على مدى تقبلنا لردة فعله المتوقعة تجاه المعلومات المفصح عنها.

ويؤكد بعض الباحثين[3] على أهمية معرفة الفرد لمستوى إفصاح الذات لديه، خاصة وأن لكل فرد مستوى مختلفًا من الحاجة للحميمية، فبعض الأشخاص يشعرون بالارتياح عندما يتحدثون عن خبراتهم الشخصية، وبعضهم يشعر بالتوتر، وهذا مؤشر على المستوى المتدني من الألفة والمودة بين الفرد والآخرين، ذلك إن انخفاض مستوى إفصاح الذات قد يؤدي إلى أن يكره الفرد نفسه، وأن يشعر بالعزلة وعدم مشاركة الآخرين، كما يعوزه نقص التغذية الراجعة (رد فعل الآخرين) عن مدى سلامة أفكاره، بالإضافة إلى الشعور بالخجل وعدم القدرة على حل المشكلات. وللإفصاح عن الذات آثار إيجابية على الفرد، ذلك أنه عندما يخوض الفرد علاقات اجتماعية مع الآخرين ويتفاعل معهم يحدث تبادل للإفصاح عن الذات، يتضمن البوح ببعض الخبرات الشخصية عن نفسه، مما يؤدي إلى التهدئة والتخفيف من الحالات الانفعالية السلبية، التي قد تتصاحب مع الخبرات الحياتية الضاغطة التي خاضها الفرد، فيشعر بالارتياح عندما يبوح بها ويناقشها مع أفراد يثق بهم أو مقربين إليه. إذ "من الأهمية أن يفشي الفرد ويفصح عن بعض الخبرات والمشاعر السلبية التي تؤرقه، حيث تبين أن الأفراد ذوي الإفصاح المرتفع عن ذواتهم لديهم مستويات أعلى في الصحة النفسية من الذين يفضلون التكتم وعدم البوح عن مشاعرهم وخبراتهم السلبية للآخرين"[4] .

ويختلف الأفراد في مقدار ما يفصحون به من معلوماتهم الشخصية للآخرين، فقد ذكر الباحثان جوزيف لوفت (Joseph Luft) وهاري إنجهام (Harry Ingham) أن الفرد لا يدرك جميع المعلومات المتعلقة بذاته، كما أن الآخرين لا يدركون جميع المعلومات المتعلقة بذلك الفرد. ولتوضيح كيفية حدوث عملية الإفصاح عن الذات فقد طور الباحثان نموذجاً أطلقا عليه "نافذة جوهاري" (Johari Window)، حيث تم تقسيم الذات البشرية إلى أربع مناطق رئيسية، وحسب سيلر وبيل (2006م& Seiler Beal)، فإن هذه المناطق هي:

1. المنطقة المكشوفة: وتحوي معلومات لا يمكن للفرد إخفاؤها عن الآخرين، مثل لون الشعر والمظهر العام والوظيفة، إضافة إلى معلومات يقدمها لهم طواعية.
2. منطقة الأسرار: وتحوي معلومات يتعمد الفرد إخفاءها عن الآخرين، فهناك أمور لا نريد للبعض أن يعرفها عنا، ومن ثم نسعى إلى حجبها عنهم، فعلى سبيل المثال قد يخفي الطالب عن والديه أن النتيجة السيئة التي حصل عليها في امتحان ما، كانت بسبب تقصيره في الدراسة، بينما لا يجد حرجًا من ذكر هذا السبب لأصدقائه المقربين.
3. المنطقة العمياء: فهناك معلومات لا نعلمها عن أنفسنا لكنها ظاهرة للآخرين، فقد يظن الواحد أنه قائد غير ناجح بينما يرى زملاؤه تحليه بمهارات قيادية فذة، ولعل أوضح مثال على ذلك نزوع بعض الأشخاص إلى تكرار كلمة معينة بشكل مستمر في أثناء حديثهم (مثل تكرار كلمة "يعني" أو "في الحقيقة") أو إحداث حركة لا إرادية عندما تسلط عليه الأنظار (مثل هز الركبة أو التبسم).
4. المنطقة المجهولة: وهي منطقة غير معروفة من الجميع، وتمثل جميع أبعاد شخصياتنا، التي لم يتم اكتشافها حتى الآن، فقد يظن الواحد منا أنه شجاع إلى أن يتعرض لخطر محدق فيكتشف خلاف ذلك.

ويمكن القول: إن مساحات الإفصاح وعدم الإفصاح الخاصة بالفرد تختلف باختلاف الشخص المقابل، بل إنها تختلف مع نفس الشخص من وقت لآخر. فكلما زادت درجة الثقة بين طرفي الاتصال، كلما ازدادت مساحة المنطقة المكشوفة، وهذا لا يعني بأن الفرد سيقوم بالإفصاح عن معلومات أكثر للشخص المقابل فقط، بل إنه على الأرجح سيكتشف أمورًا أخرى في ذاته لم يكن يعرفها من قبل، وتزداد مساحة هذه المنطقة كلما كانت العلاقة مع الآخر أقوى.

وهناك بعض العوائق التي تحول دون إفصاح المرء عن ذاته[5]، نذكر منها:

- الخوف من ظهور عيوبك للآخرين: قد تعتقد أن الإفصاح عن الذات سيُظهر للطرف الآخر القصور في شخصيتك أو في المهارات التي تتمتع بها، وهذا ما يدعو كثيرًا من الرجال إلى التردد في طلب المساعدة عندما يضلون الطريق، لكي لا يظن الطرف المقابل أنهم تائهون أو أنهم لا يملكون القدرة على تحديد الاتجاهات.
- الخوف من أن يصبح رفيقك ناقدًا لك: ربما تظن أنه عندما تطلع شخصًا ما على نقاط ضعفك فإنك بالتالي ستصبح عرضة لهجومه عليك.
- الخوف من أن تفقد شخصيتك: فالبعض يرى أن هناك بعض الأمور الخاصة بهم التي لا ينبغي لأحد أن يطلع عليها، وقد يكون هذا الخوف ظاهرًا لدى الشباب في مرحلة المراهقة بصورة أكثر، حيث تزداد رغبتهم في الاعتماد على أنفسهم واتخاذ قراراتهم الخاصة دون الرجوع إلى الوالدين أو الأخ الأكبر.
- الخوف من أن تفقد زميلك: فقد يكون لدى أحدهم سر دفين لو أطلع عليه زميله لربما أدى إلى ابتعاده عنه أو إلى إنهاء الصداقة التي بينهما، لذا فقد يتردد في إخبار زميله مثلاً بأنه كان يتعاطى المخدرات عندما كان شاباً خوفاً من أن يؤدي الإفصاح عن هذا السر إلى فقد ذلك الصديق.

وخلاصة القول: إن الإفصاح عن الذات يساعد على نمو وتطور العلاقة بين الأشخاص، كما أن الإفصاح غير المناسب يمكن أن يسيء إلى تلك العلاقة، ويتميز الأفراد ذوو الإفصاح المرتفع عن ذواتهم، بالمهارات الاجتماعية والاستعداد الاجتماعي المرتفع، وكذلك تتميز شخصياتهم بالانبساطية والقدرة على التفاعل مع الآخرين. كما يتيح الإفصاح عن الذات للفرد الفرصة أن يثق بالآخرين، لدرجة تسمح له بالبوح عن خبراته ومشاعره الذاتية، مما يساعده على أن يتخلص من أعبائه النفسية من خلال التنفيس الانفعالي لمشاعر مؤلمة أو مخجلة مما يحسن من صحته النفسية.

كما أن إخفاء حقيقة الذات عن الآخرين قد اتضح لدى بعض الأفراد من الجنسين الذين يعانون من الرهاب الاجتماعي وعدم القدرة على التعبير العاطفي، بالإضافة إلى شعورهم بالوحدة النفسية.

الهوامش:

1 – بانيني وفارمر وكلارك وبارنت (1990م،Panini Farmer، Clark & Barnett).
2 – الباكر، 1996م.
3 – هوك وقرشتاين ودتريتش وجريدلي (2003م) Hook، Gerstein، Detterich & Gridley
4 – خان وهسلينغ (2001م) Kahn & Hessling
ناب وفينغليستي (2000م) Knapp. & Vengelisti
5 – ناب وفينغليستي (2000م) Knapp. & Vengelisti

أهم المصادر:

الباكر، جمال محمد (1996م). "مقياس الإفصاح عن الذات"، كراسة التعليمات. القاهرة: دار الفكر العربي.

Hook، M.، Gerstein، L.، Detterich، L. & Gridley، B (2003). How close are we? Measuring intimacy and examining gender differences. Journal of Counseling & Development، 4 (81)، pp. 462472–.

Kahn، H. & Hessling، M. (2001). Measuring the tendency to conceal versus disclose psychological distress. Journal of Social and Clinical Psychology، 20، pp. 4165–.

Knapp، M. L. & Vengelisti، A. L. 2000. Interpersonal Communication and Human Relationships. Boston، MA.: Allyn and Bacon by Pearson Education، Inc.

Panini، R.، Farmer، F.، Clark، M. & Barnett، K. (1990). Early adolescent age and gender differences in patterns of emotional self–disclosure to parents and friends. Adolescence، 25 (100)، pp. 959977–.

Seiler، W. J. & Beal، M. L. 2006. Communication: Making connections. Boston، MA.: Allyn and Bacon by Pearson Education، Inc.

obeikandl.com

صعاليك العرب
وبحثهم عن العدالة الاجتماعية

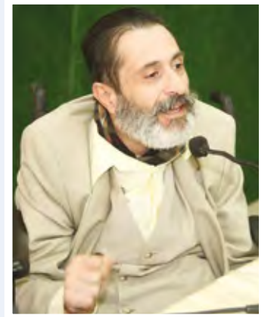

د. عمار الجنيدي
الأردن

برزت ظاهرة الصعلكة عند العرب منذ بدايات العصر الجاهلي، كأسلوب حياة وكقيمة فكرية، لأسباب فرضتها البيئة الاجتماعية والاقتصادية التي عاشوها في تلك الحقبة.
وهي بوصفها ظاهرة اجتماعية جاءت كرد فعل على بعض العادات والممارسات التي فرضها النظام المالي، الذي ساد في تلك الحقبة، فخرجوا على هذا النظام ثائرين؛ ليأخذوا بالقوة ما حُرموا منه، آخذين بثأرهم من الأغنياء البخلاء في مجتمع لا قانون ولا محاكم منظّمة فيه.

وعُرِفَتْ طائفة الصعاليك الشعراء ممن اشتهرت حياتهم وشعرهم بموضوعات وأسلوب وغايات معينة، وخاصة: بطبقة الصعاليك الفقراء، فقد عرّف معجم لسان العرب الصعلوك بأنه: «الفقير الذي لا مال له»، وقالوا عن صعاليك العرب إنهم: «ذؤبان العرب» وذؤبان العرب: «لصوصهم وصعاليكهم»، وقالت العرب: «تصعلك الرجل أي افتقر».

وفي عرف التاريخ الأدبي: هم جماعة من مخالفين العرب الخارجين عن طاعة رؤساء قبائلهم، الذين كانوا يحكمون وفقًا لمأثور عادات العرب وتقاليدهم..

ومع تطوُّرِ دلالة هذا المصطلح: أصبح يدل على طائفة من الشعراء ممن كانوا يمتهنون الغزو والسلب والنهب، ينهبون أموال الأغنياء، ويخاطرون بحياتهم من أجل سد رمق الفقراء وحاجته فيكفلونهم بذلك أسباب الحياة.

ثم اكتست كلمة الصعلكة معنى جديدًا بسبب إمعان الصعاليك بالفتك والقسوة والسلب والنهب والترويع، فصارت تعني: النزوع الثوري، حيث كان الاقتران بهذا الاتجاه الثوري يُحتِّمُ على الصعلوك لأن يكون شجاعًا فارسًا شاعرًا سريع العدو مُدركًا للفوارق الطبقية بين الأغنياء والفقراء، بحيث يحسّ بالألم الناتج عن فقره وعجزه عن التكفّلِ بمتطلّبات حياته اليومية والخبرة بدروب الصحراء.

واتضحت نزعات الصعاليك بأنهم كانوا يسطون على قوافل وأموال الأغنياء البخلاء، ويخلون الأغنياء الكرماء وكانوا يقتسمون بالتساوي ما يغنمون، وكانوا يتصفون بالنجدة والإيثار وعطفهم على الفقراء العاجزين، ويفاخرون بصعلكتهم أيما فخر، ويرون فيها قصاصًا من الأغنياء البخلاء وفتوّة وتضامنًا اجتماعيًّا و"اشتراكية قسرية"، وكان أدبهم متخمًا بالأخلاق صادقًا في تصوير حياتهم ومذاهبهم عاكسًا صدى واقعهم خالٍ من الغزل مُكثرين من مخاطبة زوجاتهم عبر أشعارهم، واشتهر منهم (عروة بن الورد) و(السليك بن السلكة) و(تأبط شرّا) و(الشنفرى) و(عمر بن برّاقة) وغيرهم.

القبائل العربية المنتشرة في بطاح صحرائها، لم تكن على مستوى متشابه في الغنى والخصوبة، فالكثير منها كان موغلاً في الفقر والجدب، بينما تجد قبائل أخرى على النقيض من الخصوبة ووفرة النتاج الغذائي، مما أفرز طبقة من الفقراء المعدمين الذين ثاروا على طبقة الأغنياء المُلّاك المترفين، واحترفوا الغزو والنهب للحصول على قوتهم، فراحوا يطلبون أرزاقهم بالإغارة على القبائل الأخرى، ينهبون القوافل الصغيرة ويسرقون الإبل ويغيرون على الأسواق.

أما النظام الاجتماعي الذي حكم القبائل العربية آنذاك فقد كان له دور الحسم في بروز ظاهرة الصعلكة، حيث إن القبائل لم تكن راضية عن سلوكيات بعض أبنائها، الذين كان لهم عداءات وثارات مع أبناء القبائل الأخرى، فخلعتهم لسوء سلوكياتهم، لأن وجودهم في القبيلة مجلبًا للثأر والاعتداء عليهم، فتبرأت منهم لكي لا تتحمل وزر جرائم جناياتهم على القبائل الأخرى، وعرفت هذه الطبقة بالـ«الخلعاء».

ووجد الكثير من أبناء الحبشيات - الذين تسرب إليهم السواد - منبوذين، غير متساوين في حقوقهم مع أبناء العربيات الحرائر، بل وغير معترف بنسبهم إلى آبائهم، وإحساسهم بظلم المجتمع لهم ؛ مدفوعين للخروج على قبائلهم للمطالبة بالاعتراف بنسبهم وحقوقهم، كعنترة ابن شداد، وهؤلاء عرفوا بـ«الأغربة السود».

اكتسب الصعاليك شهرتهم من تمردهم على قيم وقانون المجتمع الجاهلي، ومن الطباع والسجايا التي كانوا يتمتعون بها، كالشهامة والفروسية وإجادتهم قول الشعر ومناداتهم بالعدالة الاجتماعية، حيث إنهم توحدوا وأشاعوا بينهم نوعًا من العدالة الاجتماعية، التي تقوم في أهم دعائمها على المساواة، فتوزعوا الغنائم بالتساوي بينهم أولاً، ثم ما لبثوا أن تعاطفوا مع الفقراء، ليوزعوا الغنائم عليهم ويقتسموها معهم.

صديق واحد

بقلم: محمد بن يوسف كرزون

لا يعرف (أبو اللّول) من أين جاءته هذه الكنية، فهو قد تجاوز الخمسين منذ عدّة سنوات، ولم يتزوّج، ولم يأتِهِ (لول)، أو لم تأتِهِ (لؤلؤة)... فهو زاهد في النساء، فما بالك في الزواج؟ ومع ذلك هو يحبّ كثيرًا هذه الكنية. ولِمَ لا؟ فهو رجل مثل بقية الرجال... وليس يليق به أن يُنادَى باسمه مجرّدًا...

أبو اللول هذا يعمل (صيّاحًا).. نعم.. لا تستغربوا... صيّاحُ ماذا؟ صيّاحُ سيّارة أجرة (سيرفيس) حيّ طريق الباب.. وأحيانًا حيّ الحيدريّة.. فهو يصيح من الفجر الأوّل إلى ما بعد الغروب بأعلى صوته، لينادي على الزبائن أن يركبوا سيّارة معلّميه... نعم هو له أكثر من معلّم... معلّمهُ الأوّل منذ الفجر وحتّى الثانية بعد الظهر (أبو عمر) وهو سائق متفرّغ.. ومن الثانية بعد الظهر وحتّى العشاء (أبو أدهم)، وهو معلّمه الثاني... وكلّ واحد منهما أصغر منه سنًّا... ومع ذلك لا يتوقّفون عن كيل الشتائم له والسباب ربّما على عدد الركّاب... أو على عدد الليرات التي يجمعها من زبائنه... ثم هم يُظهرون نزقهم منه لأيّ حديث يستمع إليه من أحد الركّاب... وربّما لانتباهه لحوار بين راكبين أو راكبتين...

وبرغم أنّه (صيّاح)، فلا تكاد تسمع صوتَهُ لا في العمل ولا في الحيّ إلاّ نادرًا... فالجملة عنده عصيّة... ومن أجل تأمين حاجيّاته.. أو الدفاع عن نفسه من اتّهام... أو التعبير عن سرور... لا تكاد تسمع منه إلاّ كلمة واحدة أو كلمتين... إمّا بصوت خفيض مليء بالحياء... وإمّا بصياح فيه زمجرة الأقوياء...

يحاول كثيرون من مالكي (الميكرويات) أن يستميلوا قلب (أبو اللول) للعمل معهم... ويغرونه بأجر أكبر ممّا يتقاضى... يهزّ كتفيهِ إلى الأعلى... يقول (ما!!!)، وأحيانًا يكرّرها ثلاثًا... تعبيرًا عن الرفض...

أبو اللول معروف في حيّ (كرم القاطرجي) منذ زمن بعيد... منذ أن كان له صديق يُدعى (أبو رحمو)... كانا متحابّين... تراهما في أوقات الفراغ مع بعضهما لا يفترقان... يحبّان أكل (الفول المدمّس) ليس لوحدهما فقط، بل يجمعان كثيرًا من رجال الحارة... وهما لا يشتريانه جاهزًا... بل يجهّزانه منذ أذان الفجر على نار هادئة...

وعندما مات صديقه (أبو رحمو) صار القبر صديقه.. فهو لا يتوانى عن زيارته كلّ صباح.. وقبل كلّ غروب.. وكان مروره دقائق معدودات.. ينتهزها من عمله ببراعة نادرة.. لا تزعجُ أيًّا من معلِّمَيه..

يتجمّعُ حولهُ أولاد الحيّ وشبّانه.. يسألونه: كيف مات أبو رحمو؟ يجيبهم بعد إلحاح: مات وانتهى... وما لكم في الرجل.. ألم يكفكم الأحياء حتى تلحقوا الأموات؟ ثمّ يعلّق قائلاً: يا ليتني أموت كما مات... ثمّ يهرب منهم إلى غرفته الصغيرة التي تركنُ في زاوية معتمة من الحيّ...

وحقيقة الأمر أنّ (أبو رحمو) مات فجأةً.. بعدَ جدال مع معلّمه.. الذي قال له بعد عشرين سنة من العمل معه: "أبو رحمو.. هذا حساب أجرتكَ هذا الأسبوع.. وهذه فوقه إكراميّة.. ومن الغد ابحث عن عمل آخر"...

يا ربّي.. ماذا فعلتُ؟ وكيف سأعيش؟ عشرون سنة وأنا في خدمته.. ولم أزعجه يومًا.. ومنذ يومين وأنا مريض، ولم أقدر على الذهاب إلى العمل.. هل هذا ذنبي؟ هل لي ذنبٌ آخر؟؟؟!!!!

وعاد إلى بيته.. وبكى كما لم يبكِ من قبل.. لا لشيء.. إلاّ لغموض معلّمه.. ولجهله سبب الغموض والموقف.. لم يدرِ ببكائه سوى أبو اللول... فقد قضى معه ساعات قبل أن يدخل بيته... وهو الوحيد الذي عرف شيئًا من سبب حزنه...

لم يفهم أحد من أهل بيته سبب البكاء.. ولا شعروا باشتداد المرض عليه.. تركوه يذهب إلى فراشه.. لعلّه يغالب المرض.. وعندما دخلوا إليه في وقت متأخّر من الليل وجدوه قد انتهى.. لا حركةَ جسده الأصفر الشاحب.. لم يتمكّن من (التصبيح) على أبو اللول.. لأنّ الموتَ قد أتاهُ وانتهى... فلم يخطر على باله أنّ لقاءه بأبو رحمو هو آخر لقاء..

أبو اللول لمن سيشكو همّه بعد اليوم؟ ومن سيحضّر الفول معه؟ ومن سيبادله بالحديث عن الهموم الكثيرة؟ ومن سيساعده على الزواج من أختِ أبو رحمو؟ هو أحبّها لأنها أخت أبو رحمو.. صحيح لم يتكلّم معها ولا حرف.. ولكن نظراتها له ونظراته لها تجعل قلبه يطير فرحًا.. وينتظر الفرح القريب.. وأبو رحمو صارحه بزواجهما..

وفجأةً.. وبعد أيّام من وفاة أبو رحمو يضجّ في الحيّ خبر خطوبة (فريدة)، أخت أبو رحمو من المعلّم.. لم يصدّق ما سمع: أسبوع واحد فقط مضى على وفاة أخيها.. معقول أن تُقدم أسرتها على خطوبة من هذا النوع؟ الناس في بلادنا ينتظرون حتى مرور 40 يومًا على الأقل.. ثمّ هي كيف وافقت؟ وتطاولت أسئلته.. وكثرت حتّى التفّت عليه.. وملأت غرفته حتّى السقف.. حرّكَ يديه وكأنّه يدفع خيوط الأسئلة وحبالَها عن رقبته.. ونامَ..

في الصباح.. تذكّر صديقه مثل كلّ يوم.. ونسيَ الدنيا كلّها.. سوى أن قدّمَ لأختِ أبو رحمو باقة ورود صغيرة وقال لبائع الورود: اكتب عليها (أبو اللول يتمنّى لكِ السعادة والخير)...

ومن يومها لا يتكلّمُ أبو اللول.. هو يصيح.. صيّاح.. ولكنه لا يتكلّمُ إلاّ مع أحجار قبر صديقه...

ملاحظة

1: كتبتُ الكنية (أبو رحمو) دون إخضاع لقواعد النحو، لأنّ أهل حلب يلفظونها هكذا.. وأنا تركتها مبنية على الحكاية.

2: الميكرو: هو الميكرو باص سيارة نقل متوسطة الحجم تتسع لما بين 7 إلى 13 راكبًا.. حسب نوعها...

السّيوطي ..

أنموذجُ العالِم المُشارك في التراث العربي الإسلامي

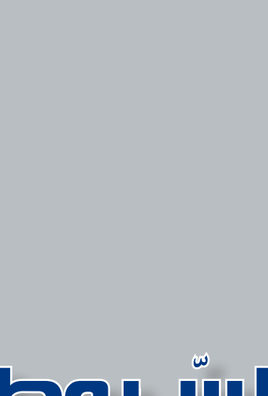

بقلم: د. فريد أمعضشو

باحث مغربي

نطالع ونسمع كثيرًا بأن فلانًا متخصِّص، مثلاً، في الشعر، أو النقد، أو الفقه، أو القانون، أو غيرها من ميادين المعرفة والإبداع. بل إنّا نجد بعضَهم متخصّصًا فيما هو أدقّ؛ كأنْ يتخصص في طبّ العيون، أو في دراسة شعر التفعيلة، أو في زكاة الأنعام، أو في غيرها من المجالات العلمية والأدبية والفنية الدقيقة .. إن الأمر يتعلق بظاهرة التخصُّص العلمي التي يراها الكثيرون ذات فائدة عميمة منْ مُنطلَق أن المُشتَغِلَ بعلم ما، حَصْرًا، يكون عطاؤه فيه أوفر، ويكون خَوضُه فيه أنْجع وأعمق، بخلاف مَنْ يُسْهِم في مجالات عدة إسهامًا يُشتِّتُ جهدَه، ويجعل مردوده أضعفَ وأقربَ إلى السطحية في نظرهم، ظانِّينَ – ربما – أن العالم غير مستطيع التمكنَ من علوم عدة! وإذا عُدْنا إلى تاريخ أمتنا العلمي محاولين التعرفَ إلى سِيَر علمائنا الأجلاّء، فسنُلْفي أنهم كانوا – في الغالب – لا يُقصِّرون اهتمامَهم على علم من العلوم، بل كانوا يخوضون في جملة ميادين معرفية، قلَّ عددُها أو كثُر، ويؤلفون فيها كتبًا ورسائلَ. لذا، تجد الواحدَ منهم أديبًا، وفقيهًا، وفلَكيًا، وطبيبًا... وهذا ما يعبِّر عنه أصحابُ التراجم القدامى بلفظ "المُشارِك"، أو ما يعبَّر عنه – حديثًا – بمصطلح "المَوْسُوعي". والأمثلة على ذلك من الوفرة بمكان في تراثنا العلمي الغنيّ، ولعلّ من أبرزها حالة جلال الدين السيوطي، رحمه الله، علاّمة عصره، وفريد دهره، ونابغة مصْره... التي تقوم دليلاً خِرِّيتًا على أننا عرفْنا أنموذج "العالم المشارك" قبل أن يظهر، بقرون كثيرة، ما سُمّي بـ"المَوْسوعيّين" (الأنسِكْلُوبيديّين) بفرنسا، خلال القرن الثامن عشر (عصر الأنوار)، الذين كتبوا في ألوان عديدة من المعرفة؛ كما قال د. أحمد عزّت عبد الكريم.

يَلْفتُ انتباهنا، لدى الاطلاع على مَنَائِر التراث العلمي الذي خلّفه أسلافنا، على امتداد الأَعصر والأزمان، ظاهرة ترجمية تستحقّ منا الوقوف عندها، ودراستها دراسة تحليلية ومقارنة، وهي ترجمة العالِم أو الأديب لنفسه؛ الأمر الذي يقوّي فرضية ظهور فن السِّيرة الذاتية (الأوتوبيوغرافيا) في تراثنا الأدبي، أو على الأقل انطوائِه على إرهاصاته وبذوره. فقد عمد مجموعة من علمائنا، قديمًا، إلى كتابة سِيَرهم بأنفسهم إمّا في أحياز محددة داخل كتبهم؛ على نحْو ما فعل ابن الخطيب السَّلْماني (ت 776هـ) في آخر كتابه الموسوم بـ"الإحاطة في أخبار غرناطة"، وإما في كتب مستقلة؛ كما فعل السيوطي في كتابه "حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة" (جزآن)، وفي كتابه "التحدث بنعمة الله" (جزء واحد).

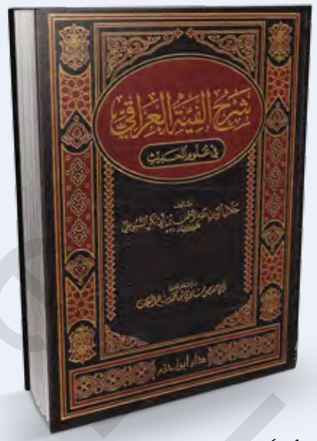

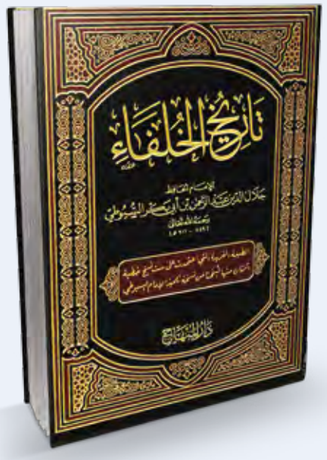

وإن السيوطي، بمُباشَرَته هذه الترجمة الذاتية، كان على علم بأنه يقلد علماء سابقين فعلوا الشيءَ نفسَه، ولاسيما في مجاَل الكتابة التاريخية، وبأنه ليس مُدشِّنَ هذه العادة في الثقافة العربية الإسلامية؛ إذ قال في "حسن المحاضرة": "وإنما ذكرْتُ ترجمتي في هذا الكتاب اقتداءً بالمحدثين قبلي، فقلَّ أن ألّف أحدٌ منهم تاريخًا إلا وذكر ترجمته فيه. وممّنْ وقع له ذلك الإمام عبد الغفار الفارسي في "تاريخ نيسابور"، وياقوت الحموي في "معجم الأدباء"، ولسان الدين بن الخطيب في "تاريخ غرناطة"، والحافظ تقيّ الدين الفارسي في "تاريخ مكّة"، والحافظ أبو الفضل ابن حجر في "قضاة مصر"، وأبو شامة في "الروضتين"، وهو أَرْوَعُهم وأزهدهم". (335/1 – 336) ونضيف إلى هؤلاء المذكورين، هنا، ابن خلدون الحضرمي (ت 808هـ)، الذي عرَّف بنفسه في آخر أجزاء كتابه المعروف "العِبر"؛ هذا الجزء الذي نُشر في كتاب مستقلّ – لاحقًا – عنوانُه "التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا" (تحقيق محمد بن تاويت الطنجي).

ممّا استهلّ به السيوطي ترجمته ذِكْرُه نَسَبَه مفصّلاً. فهو جلال الدين عبد الرحمن ابن الكمال بن أبي بكر محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان بن ناظر الدين محمد بن سيف الدين خضر نجم الدين أبي الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضيري الأسيوطي؛ نسبةً إلى أسيوط، أو سيوط، عاصمة الصعيد المصري. ويُكنّى بأبي الفضل. وهو سليلُ عائلة عريقة، قيل: إن أجدادها قدِموا إلى مصر من بغداد، عُرِفوا بالمكانة الاجتماعية والتجارة والزهد وفعل الخير والعلم، واشتهر في هذا الأخير عددٌ من أفراد تلك العائلة، أبرزهم والده الذي كان، كذلك، قاضيًا؛ على حدّ تعبير عبد الرحمن السيوطي نفسه في الترجمة المُشار إليها؛ إذ قال: "ولا أعرف منهم مَنْ خَدَم العلم حقَّ الخدمة إلاّ والدي".

وقد وُلد الرجل "بعد المغرب ليلةَ الأحد مستهلَّ رجب سنةَ 849 هـ"، في القاهرة، وعانى مرارة اليُتْم، وعمرُه دون الست سنوات، بموت أبيه. وحفظ القرآن الكريم كاملاً دون الثامنة من عمره، وقرأ كتبًا كثيرة جدًّا؛ فأحبّ العلمَ وهو صغيرٌ، وكان لوالده إسهامٌ كبير في هذا الصدد؛ لأنه كان يصْحبه معه إلى مجالس العلماء. وبمرور الأعوام، لازَمَ المشايخ، وتلقى عنهم العلم، وعددُهم 150، ترجمَ لهم في معجم خاصّ سمّاه "حاطب ليل وجارف سيل"، ومنهم الإمامان سراج الدين البُلْقيني وابن حجر العسقلاني اللذان كان يعدّهما قدوته في العلم؛ بحيث ذكر أنه دعا الله، وهو يشرب من ماء زمزم لَمّا حَجّ، أن يصل في الفقه درجةَ البلقيني، وفي الحديث درجة ابن حَجَر. ومنهم، أيضًا، تقي الدين الشمني، وهو أحد شيوخه في العربية، وأستاذُه محيي الدين الكافيجي الذي دامت مدة ملازمته له أربعَ عشْرة سنةً. وعاصر السيوطي، الذي عاش في آخر العهد المَمْلوكيّ، كثيرًا من العلماء؛ من مثل السخاوي، وابن إياس، والقسطلاني. وعُرف عنه الارتحال لطلب العلم، وملاقاة الشيوخ، ومعرفة طبائع الناس وعوائدهم في البلدان الأخرى؛ إذ سافر إلى الشام والحِجاز واليَمَن والهند والمغرب وبلاد التكرور، وقد أفاده ذلك كثيرًا فيما صنّفه، علمًا بأنه كان مؤرِّخًا ذا تآليف عدة في هذا المجال على نحو ما سنذكر فيما بعْدُ.

وجلس السيوطي للإقراء والتدريس بعد نيْله الإجازة من عدد من شيوخه في العلوم الشرعية والأدبية. فقد أُجيزَ للتدريس وهو لَمّا يتجاوزْ بعْدُ السابعة عشرة من عمره، في مطلع سنة ستٍّ وستين وثمان مئة؛ ممّا يدلّ على ذكائه ونباهته وسَعَة معرفته في تلك السنّ المبكرة. ولعلّ أبرز المؤسسات التي درّس فيها اثنتان: جامع ابن طولون المُشيَّد في القرن الهجري الثالث، والشيخونية بعد وفاة عثمان المقدسي. وكان يتولى تدريس جملة علوم نبغ فيها، وتضلَّع منها، وفي مقدمتها الحديث النبوي الشّريف ومصطلحه وعلومه عامة. وقد ذكر هذه العلوم قائلاً: "رُزِقتُ التبحُّر في سبعة علوم: التفسير، والحديث، والفقه، والنحو،

أن العالم غير مستطيع التمكنَ من علوم عدة! وإذا عُدْنا إلى تاريخ أمتنا العلمي محاولين التعرفَ إلى سِيَر علمائنا الأجلاّء، فسنُلْفي أنهم كانوا – في الغالب – لا يُقصِّرون اهتمامَهم على علم من العلوم، بل كانوا يخوضون في جملة ميادين معرفية، قلّ عددها أو كثُر، ويؤلفون فيها كتبًا ورسائلَ. لذا، تجد الواحدَ منهم أديبًا، وفقيهًا، وفلَكيًا، وطبيبًا... وهذا ما يعبِّر عنه أصحابُ التراجم القدامى بلفظ "المُشارِك"

يَلْفتُ انتباهنا، لدى الاطلاع على مَنَائِر التراث العلمي الذي خلّفه أسلافنا، على امتداد الأعصر والأزمان، ظاهرة ترجمية تستحقّ منا الوقوف عندها، ودراستها دراسة تحليلية ومقارنة، وهي ترجمة العالم أو الأديب لنفسه؛ الأمر الذي يقوّي فرضية ظهور فن السيرة الذاتية (الأوتوبيوغرافيا) في تراثنا الأدبي، أو على الأقل انطوائه على إرهاصاته وبذوره. فقد عمد مجموعة من علمائنا، قديمًا، إلى كتابة سِيَرهم بأنفسهم

والمعاني، والبيان، والبديع، على طريقة العرب البُلغاء، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة". وفي آخِر قوله هذا إشارةٌ واضحة إلى أنه تلقى تلك العلوم، ودرّسها كذلك، بالطريقة التعليمية الأصيلة لا بالطريقة المتأثرة بالمنطق الأرسطي وبالمؤثرات الأجنبية بصفة عامة. وتأتي بعد هذه المعارف علومٌ أخرى، هي: أصول الفقه، وعلم الكلام، والصرف، والإنشاء والترسُّل، والقراءات، والطبّ، والتاريخ، والتصوف. وثمة عِلْمان ابتعد عنهما السيوطي لأسباب محددة، أحدُهما الحسابُ الذي كان يجد مشقة بالغة في استيعاب مسائله؛ إذ قال عنه: "فهو أعْسر شيءٍ عليّ، وأبْعده عن ذهني. وإذا نظرتُ في مسألة تتعلق به، فكأنما أحاول جبَلاً أحْمله". والثاني هو علم المنطق، الذي نأى عنه لأنه رآهُ غير ذي نفع، وأنّ دراسته مُضِرّة؛ ولذلك – كما قال – "تركْتُه، فعوّضني الله تعالى غيرَه: علم الحديث، الذي هو أشْرف العلوم". على أنّ ترْكَه المنطقَ ليس معناه أنه كان يجهله أو يشقّ عليه أمْر فهمه كما هو الحال بالنسبة إلى علم الحساب، بل الحقيقة عكس ذلك؛ ذلك بأنّ الرجل قد ألّف فيه "القول المشرق"، محرِّمًا الاشتغال به، ومعبِّرًا عن كرهه له، لاسيما بعد أنْ أفتى ابن الصلاح بتحريمه، وكذا كتاب "صون المنطق والكلام عن فنّ المنطق والكلام".

وبعد الحفظ، والأخذ عن شيوخ العلم، والجلوس للتعليم، شرَع السيوطي في التأليف انطلاقًا من سنة 866 هـ؛ حيث قال: "وقد ألّفتُ في هذه السنة، فكان أول شيء ألفته "شرح الاستعاذة والبسْملة"، وأوْقفتُ عليه شيخنا شيخ الإسلام علم الدين البُلقيني، فكتب عليه تقْريظًا". وتوالت، بعد ذلك، تآليفه، التي بلغت المِئات، في شتى الميادين العلمية التي كانت معروفة إلى زمانه؛ وبذلك، "دخل التاريخ من أوْسَع أبوابه"؛ على حدّ عبارة أحد الدارسين المُحْدَثين.

ومارس الإفتاءَ، وهو مقامٌ جليل وخطير، في الوقت نفسه، لا يبلغه إلا الراسخون في العلم، المتفقِّهون في أبوابه، وهو دون الثانية والعشرين من عمره؛ فأفتى في كثيرٍ من النوازل والقضايا، وكان حريصًا على تقييد فتاواه وإجاباته، التي جمع جملةً وافرة منها في كتابه "الحاوي للفتاوَى".

لقد أهّلتْ هذه المسيرة الحافلة بالعطاء العلمي صاحبَها لأنْ يكون مجتهدًا؛ كما قال هو نفسُه، وكان يرى أن باب الاجتهاد يظل مفتوحًا إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها، وأنه واجبٌ وجوبًا كفائيًّا على الأمة في كل عصر ومصر، منتقِدًا مَنْ يقف في وجه ذلك، قائلاً عنهم في أول رسالته الموسومة بـ"الردّ على مَنْ أخلد إلى الأرض، وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض": "وبعد، فإن الناس قد غلب عليهم الجهل وطَمَّهم، وأعْماهم حبّ العناد وأصَمَّهم، فاستعظموا دعوى الاجتهاد وعَدُّوه منكرًا بين العباد. ولم يشعر هؤلاء الجَهَلة أن الاجتهاد فرضٌ من فروض الكفايات في كل عصر، وواجبٌ على أهل كل زمان أن تقوم به طائفة من كل قطر". وذكر السيوطي أنه لم يبلغ مرتبة الاجتهاد إلا بعد أن تقدَّم به العُمْر، وأخذت ملامح الكِبر تبدو عليه، فقال في "حسن المحاضرة": "وقد كملتْ عندي الآن آلات الاجتهاد – بحمد الله تعالى – أقول ذلك تحدُّثًا بنعمة الله لا فخرًا، وأيّ شيء في الدنيا حتى يطلب تحصيلها بالفخر، وقد أزف الرحيلُ، وبدا الشيب، وذهب أطيب العمر! ولو شئتُ أن أكتب في كل مسألة مصنفًا بأقوالها، وأدلتها النقلية والقياسية، ومداركها، ونقوصها، وأجوبتها، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها، لقدرتُ على ذلك، من فضل الله، لا بحوْلي ولا بقوتي، فلا حولَ ولا قوة إلا بالله، ما شاء الله، لا قوة إلا بالله". (339/1)

إن هذه المكانة العلمية الرفيعة التي بلغها السيوطي سبّبت له، أحيانًا، مشكلات ومتاعبَ، وجرّت عليه انتقادات، وأوْجدت له خصومًا، أشدُّهم عليه – إطلاقًا – هو معاصرُه وبلديه السخاوي (ت 902هـ) الذي كان منافسًا قويًا له، وهو ذو شهرة في مجال التاريخ كما نعلم؛ إذ كان ينتقده، ويَكيل له الاتهامات بالكذب والسرقة العلمية بالسطْو على جهود العلماء وعَزْوها إلى نفسه! ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل بالَغ السخاوي – كما يذكر دارسون – في تهجُّمه على السيوطي؛ فرماه بالغباء لجهله الحسابَ، وبعُقوق أمّه التي ذكر أنها جاريةٌ تركية غيرُ عربية الأصل، وبالانتهازية والأنانية. ولم يقف السيوطي مكتوفَ اليدين حيَال هذه الاتهامات، بل رَدّ عليها، موجّهًا سيْلاً من الانتقادات للسخاوي؛ كما في "الكاوي في الرد على السخاوي"، وممّا قاله عنه: "وخرَّج لنفسه ولغيره، مع كثرة لحْنه وعرْيه من كل علم؛ بحيث إنه لا يحْسن غير الفنّ الحديثيّ شيئًا أصلاً، ثم أكبَّ على التاريخ؛ فأفنى فيه عمره، وأغرق فيه عمله، وسلق فيه أعراض الناس، وملأه بمساوئ الخلق، وكل ما رموا به، إنْ صدقًا وإنْ كذبًا". فقد جرّد السيوطي السخاويَّ من كل علم، ما عدا فن الحديث، وأشار إلى أن ما كتبه في فن التاريخ كان عن غير هدى وتوفيق؛ لأنه حشاه بأمور أبعد عن الحقيقة والعِلْميّة. ولم يكن نقدُ السيوطي، أحيانًا، يخلو من قسوة وسخرية مُرَّة؛ كما في انتقاده لابن الكركي في مقامة أسْماها "طرز العمامة في التفرقة بين المقامة والقمامة".

وقد تبيّن لعددٍ من العلماء، قديمًا وحديثًا، أنّ ما رُمي به السيوطي يفتقد إلى الموضوعية، وأنّ أكثره كذب وافتراء، وأن مردّه، بالأساس، إلى الحسد والحقد جرّاءَ المكانة السامقة التي بلغها الرجل في سلّم العِلم، وإلى تعاصُرهما، و"المُعاصَرة حجاب" كما يُقال، تمنع أحيانًا المُتجايلين من الاعتراف ببعضهم بعضًا. لذا، تصدّوا للردّ عليها، والمنافحة عن السيوطي، وإحْلاله المنزلة التي يستحقها بكل موضوعية. فهذا الإمامُ الشوكاني، رحمه الله، يردّ تلك الاتهامات، في كتابه "البدر الطالع"، قائلاً: "وعلى كل حال، فهو غير مقبول عليه، لما عرفت من قول أئمة الجرح والتعديل بعدم قبول شهادة الأقران في بعضهم بعضًا، مع ظهور أدنى مناقشة، فكيف بمِثْل المنافسة بين هذين الرجلين (يقصد السيوطي والسخاوي) التي أفضت إلى تأليف بعضهم في بعض، فإن أقلّ مِنْ هذا يُوجب عدم القبول". ويقول أحد باحِثِينا المعاصرين، وهو د. عبدالعال سالم مَكْرَم، رادًّا تلك الاتهامات، مُبرزًا دوافعها: "القارئُ لهذه الاتهامات، سواء كانت شخصية أو علمية، لا يرى فيها إلا سُمومَ الحقد والكراهية والحسد والبغض. إنها لم تصدر في إطار الموضوعية والاتزان، ولكنها جاءت مشحونةً بالانفعال في الغضّ من قيمة الرجال، على أنّ هذه الاتهامات لم توجَّه إلى السيوطي بعد موته، ولكنها وُجّهت إليه في حياته..." (جلال الدين السيوطي وأثره في الدراسات اللغوية، ص 151).

ولعل مثل هذه المعاملة التي لقيها من بعض معاصريه كانت من الأسباب التي دفعته إلى الانقطاع عن الناس، وإيثار العزلة وحياة الزهد والتأمُّل، والتوقف عن الفتوى والتعليم. وقد ألّف في ذلك كتابًا أسْماه "التنفيس في الاعتذار عن ترك الفتيا والتدريس". ولزم السيوطي هذه الحياة، معتزلاً في بيته، مُكِبًّا على البحث والتمحيص والتأليف، طَوالَ العشرين سنة الأخيرة من عمره أو أكثر. يقول عنه نجم الدين الغزّي، في كتابه "الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة": "لما بلغ أربعين سنة من عمره، أخذ في التجرُّد للعبادة والانقطاع إلى الله، والاشتغال به صرْفًا، والإعراض عن الدنيا وأهلها، كأنه لم يعْرف أحدًا منهم، وشرع في تحرير مؤلفاته، وترْك الإفتاء والتدريس، واعتذر عن ذلك... وأقام في "روضة المقياس"، فلم يتحوّل منها إلى أنْ مات، لم يفتح طاقات بيته التي على النيل من سكناه، وكان الأمراء والأغنياء يأتون إلى زيارته، ويَعْرضون عليه الأموال النفيسة فيرُدُّها". وارتباطًا بحياته الزُّهْديّة هذه، فإن الرجل قد تولى – كما هو ثابت – مشيخة الصوفية بتربة برقوق سيف الدين أبي سعيد الملقب بـ"الملك الظاهر" الجرْكسيّ، ومشيخة البيبرسيّة بعد الجلال البكري. وقبل أن يُقْبلَ السيوطي على التصوف واعتزال الناس، وقبل أن يتحلَّل من جميع مسؤولياته الدنيوية، كان قد تولى مهمة القضاء على عهد السلطان المملوكي المتوكّل. وتوفي جلال الدين السيوطي "بعد أذان الفجر ليلةَ الجمعة 19 جمادى الأولى 911 هـ"، إثْرَ مرضه أسبوعًا بورم شديد على مستوى ذراعه اليسرى، وقُبِرَ بحوش قوصون في زاويةٍ عند باب القرافة، بالقاهرة، ووُضعت على قبره قبّة بارزة.

وخلّف السيوطي، رحمه الله، تراثًا علميًّا غنيًّا ومتنوعًا، يقدّر بالمئات من الآثار ما بين كتب ورسائل صغيرة الحجم. وقد سرد المؤلِّف نفسُه عناوين كتبه في (حسن المحاضرة) (ذكر فيه أن له ثلاث مئة مؤلَّف سوى ما غسله ورجع عنه)، وفي (التحدث بنعمة الله). وترجم

له تلميذه عبد القادر الشاذلي في كتابٍ عنْوَنَه بـ(بهجة العابدين بترجمة حافظ العصر جلال الدين)، عدَّد فيه أربعةً وعشرين وخمس مئِة (524) مؤلَّفًا له. ولمّا كانت كتبه متعددة ومختلفة، فقد عمد السيوطي إلى تصنيفها إلى سبعة أقسام، في كتابه (التحدث...)، الذي ذكر بين ثناياه أن له خمسين وثلاث مئةَ (350) كتابًا تامًّا، علاوة على ثلاثة وثمانين (83) لم يُتِمَّها بَعْدُ، آنئذٍ، وتلك الأقسامُ كالآتي:

- قسم ادّعى فيه التفرُّد، وأنه لا نظير له.
- قسم ألّف ما يناظره.
- قسم صغير الحجم من كرّاسين إلى عشرة، وكتبُه تامّة.
- قسم وقع في كرّاس ونحوه.
- قسم ألف في واقعات الفتاوى من كراس وفوقه ودونه.
- قسم لا يعتدّ به؛ لأن اعتناءَه فيه كان بالرواية المَحْضة.
- قسم كان قد شرع فيه، ولم يكتب منه إلا القليل.

ونميز في كتب السيوطي بين ثلاثة أصناف باعتبار النشر. فبعضُها مطبوع، سواء أكان محققًا أم غير محقق، وسواء أكان تحقيق المُحَقَّق منها علميًّا رصينًا أم تجاريًّا. وكثيرٌ منها ما يزال مخطوطًا حبيسَ رفوف الخزائن العامة أو الخاصة، في أماكن متفرقة من العالم، يَنتظر مَنْ ينفُض عنه الغبار، ليُخرجه للناس ويُحْييَه. ومنها المفقودُ الذي نعرفه من خلال الإشارة إلى عناوينه في كتب الفهارس وغيرها. ولا بد من الإشارة، ها هنا، إلى اختلاف العلماء في تَعْداد مؤلفات السيوطي؛ إذ ذكر بعضهم أنها تقدَّر بخمس مئة كتاب أو يزيد، وذكر آخرون أنها ست مئة مؤلف، وعدّد منها أحدهم ما يقارب الألف، وأحْصى آخرون منها أقلّ من ذلك عددًا. وتزدانُ المكتبة العربية بعملين مهمّين في فهرسة كتب السيوطي؛ أولهما لأحمد الشرقاوي إقبال، بعنوان (مكتبة الجلال السيوطي)، صدر بالرباط، عامَ 1977، وقد أحصى مؤلفات الرجل المطبوعة فقط، وعدَدُها 725، مبيِّنًا ناشرها وطابعها، وتاريخ إصدارها. وظهر، بعد ستّ سنوات، كتابٌ آخرُ استدرك نقصَ كتاب أحمد إقبال، عنوانُه (دليل مخطوطات السيوطي وأماكن وُجودها)، صدر بالكويت، ومؤلِّفاه أحمد الخازندار ومحمد إبراهيم الشيباني. ومن الكتب التي تفيدنا في هذا الصدد، كذلك، كتابُ مصطفى الشكعة الموسوم بـ(جلال الدين السيوطي: مسيرته العلمية). ويتضح من تصفح هذه الفهارس والمَسارد أن الرجل كان، بالفعل، كاتبًا مُكْثرًا، نال نصيبًا أوفرَ من تآليفه ميدانُ الحديث، يليه الفقه وأصوله، والقرآن وعلومه، ثم اللغة والأدب، ثم التاريخ وغيره. وحَسْبُنا أن نشير، في الأسطر الآتية، إلى جملة من كتبه في هذه الحُقول العلمية.

فمن مؤلفات السيوطي الكثيرة في فنّ الحديث ومصطلحه وعلومه نذكر: (كشف المغطّى في فضل

الموطّا)، (اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة)، (اللمع في أسماء مَنْ وَضَع)، (المسلسلات الكبرى)، (التوشيح على الجامع الصحيح)، (الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج)، (مرقاة الصعود إلى سنن أبي داود)، (تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي)، (نظم الدرر في علم الأثر)، (عين الإصابة في استدراك عائشة على الصحابة)، (منتهى الآمال في شرح حديث: (إنما الأعمال)، (مناهج الصفا في تخريج أحاديث الشفا)، (جامع المسانيد)، (الطب النبوي)، (كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة)، (الأربعون حديثًا في فضل الجهاد).

ومن مؤلفاته في علوم القرآن وما يتصل به نجد: (الإتقان في علوم القرآن)، (تفسير الجلالين)، (الدر المنثور في التفسير المأثور)، (ترجمان القرآن)، (أسرار التنزيل)، (مفاتيح الغيب)، (حاشية على تفسير البيضاوي)، (لباب النقول في أسباب النزول)، (المهذَّب فيما وقع في القرآن من المعرَّب)، (مفحمات الأقران في مبْهمات القرآن)، (الألفية في القراءات العشْر).

ومن آثاره في الفقه وما يتعلق به هذه العناوين: (المصابيح في صلاة التراويح)، (الأشباه والنظائر الفقهية)، (الثبوت في ضبط ألفاظ القنوت)، (الجامع في الفرائض)، (الأزهار الغضّة في حواشي الروضة)، (بلغة المُحتاج في مناسك الحاجّ)، (فصل الكلام في حكم السلام)، (أدب الفتيا)، (الروض الأريض في طهر المَحيض).

وممّا تركه السيوطي في ميدان اللغة والأدب عمومًا نشير إلى الكتب الآتية: (المزهر في علوم اللغة وأنواعها)، (همع الهوامع)، (الأشباه والنظائر في النحو)، (الاقتراح في أصول النحو)، (عقود الجمان في المعاني والبيان)، (شرْحُه)، (الفتح القريب على مغني اللبيب)، (الجمع والتفريق في أنواع البديع)، (شرح أبيات تلخيص المفتاح)، (البهجة المرضية في شرح الألفية)، (شرح القصيدة الكافية في التصريف)، (تعريف الأعجم بحروف المعجم)، (البرق الوامض في شرح يائية ابن الفارض)، (ديوان شعر) مفقود، (المقامات)، (كُنْه المراد من شرح بانَتْ سُعاد).

وله في فنّ التاريخ والتراجم عدة تآليف، منها: (تاريخ الخلفاء)، (أخبار الجواري)، (الشماريخ في علم التاريخ)، (طبقات الحفاظ)، (طبقات المفسرين)، (تاريخ أسيوط)، (الأحاديث المنيفة في فضل السلطنة الشريفة وأنواع الخَيْرات المألوفة)، (الوسائل إلى معرفة الأوائل)، (تحفة الظرفاء بأسماء الخلفاء)، (رفع الباس عن بني العبّاس)، (تحفة العجلان في فضل عثمان)، (إلقام الحجر لمن زكّى سابَّ أبي بكر وعمر). ويُضاف إلى كتبه في الحقول المعرفية المذكورة آنفاً أعمالٌ أخرى دَبَّجَها السيوطي في المنطق؛ كما رأينا في موضع سابق، والكلام والتصوف ونحوها، مِنْ مثل (المعاني الدقيقة في إدراك الحقيقة)، و(شرح الكوكب الوقّاد في الاعتقاد)...

ممّا تقدَّم، يتضح لنا أن السيوطي كان من أهرام الثقافة العربية، ومن قِمَمها الشامخة في النصف الثاني من القرن التاسع وأوائل القرن العاشر، وممّا يحقّ لها الفخر به، وأنه كان أنموذجًا للموسوعية في تراثنا الأدبي والفكري والعلمي بما خلّفه من مؤلفات غزيرة في مختلِف الميادين، أغْنَت المكتبة العربية إغناءً واضحًا، وأفادت أبناء الأمة، على مرّ العصور، وغيرهم كذلك. ولا أجِدُ خيرًا من كلام د. مروان القدومي، في مقاله "الإمام السيوطي داعية الاجتهاد والتجديد"، لختْم مقالتي هذه: "والحقّ أن فضل السيوطي على العالَم الإسلامي عظيم. فهو في مقدمة الذين أثْرَوا الثقافة العربية الإسلامية، ورفعوا من شأنها، وأحلُّوها مكانًا عاليًا، ومنزلة ساحقة. فهو أحدُ الذين قادوا مواكبها بمَوْسُوعيته العلمية، فأثْرى المكتبة العربية بنفائس المؤلفات وذخائر المصنَّفات، ممّا شهد لها المحققون، وأقرّوا لصاحبها بطُول الباع، وسَعة الاطلاع، ووَفرة المَحْصول".

أنور العطّار ..
شاعر الجمَال والطبيعة

بقلم: هاني أنور العطّار
الرياض

حياة الشاعر "أنور العطار" لم تكن طويلة قياسًا لما ترك لنا من إرث أدبي هائل، ولد الشاعر "أنور العطّار" عام 1913م بمدينة بعلبك من أبوين دمشقيين، وتوفي عن تسع وخمسين عامًا، في صباح يوم الأحد الموافق لـ 23 تموز/ يوليو عام 1972م في مستشفى المواساة، ودفن في مقبرة الدحداح بدمشق، أي أنه عاش فقط تسعًا وخمسين سنة فقط، وهو زمن قصير في عمر العبقرية ولا شك.

تلقى دراسته الابتدائية وأكملها في مدرسة البحصة في دمشق، ثم انتقل إلى "مكتب عنبر" لإكمال دراسته الثانوية، وبعد ذلك انتسب إلى دار المعلمين حيث نال شهادة أهلية التعليم الثانوي التي أهلته للعمل مديرًا لمدرسة "منين" الابتدائية في ريف دمشق.

أتمّ دراسته في دمشق وتخرج من كلية الآداب من قسم اللغة العربية في الجامعة السورية، وكانت شهادته هذه خامس شهادة تعطى من كلية الآداب بدمشق عام 1935م.

زاول التدريس في مدارس حلب و دمشق ثمّ انتدب لتدريس اللغة العربية في العراق لمدة خمس سنوات، وعاد الى دمشق حيث زاول التدريس والإدارة، ثمّ عمل مفتشًا أولاً لمادة اللغة العربية في سورية.

سافر إلى المملكة العربية السعودية حيث درّس الأدب العربي في كلية اللغة العربية في جامعة الرياض، ما بين الأعوام 1964.1965، 1966م.

أحبّ الشاعر أنور العطار جمال الطبيعة وغنّاها أعذب الشعر، واهتم في الفكرة والكلمة معًا، وهو بحتري الأسلوب، وقد أحبّ اثنين من الأدباء المعاصرين له رأى في نثريهما صورًا حيّة من الشاعرية فنهج نهجيهما – وهما "معروف الأرناؤوط" صاحب جريدة "فتى العرب"، وجريدة "سيد قريش"، و" أحمد حسن الزيّات" صاحب مجلة "الرسالة" المصرية التي كانت المجلة الأدبية الذائعة الصيت، والواسعة الانتشار في العالم العربي في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي، كما أنه أحب وحفظ الكثير من شعر أمير الشعراء "أحمد شوقي"، وتعقب نشر أشعاره في الصحف والمجلات حتى إنه أستطاع إحصاءها ومعرفة ما لم يطبع منها آنذاك، وهيئ مخطوطًا لها للطباعة سماه" الشوقيات التي لم تنشرها الشوقيات".

تأثر بالأدب الفرنسي وأحب "لامارتين Alphonse de Lamartine" و"ألفرد دو موسيه Louis Charles Alfred de Musset–Pathay"، وترجم نظمًا كثيرًا من أشعارهما.

مجّد البطولة العربية وأنشد لها قصائد رائعة بالحماسة منها: فلسطين، ثورة مصر، ثورة الجزائر، النازح العربي وغيرها كثير.

أصدر في عام 1948م ديوانه الشعري الأول، الذي أسماه "ظلال الأيّام" وقد ضمّنه قصائد رائعة في الوصف والتأمل والمناجاة والبطولات.

وللشاعر "أنور العطّار" الكثير من الدواوين الشعرية والدراسات الأدبية المخطوطة، التي هي قيد التجهيز للطباعة بإذن الله منها: "البواكير" و"وادي الأحلام" و"الشاعر" و"الليل المسحور" و"ربيع بلا أحبة" و"منعطف النهر" و "مع قصائد الخالدين" و"ألف بيت وبيت" وديوان "ألف بيت و بيت" لم يكمله، وقد كانت فكرته مبنية على أساس قدرته في انتقاء أجمل بيت شعر من قصيدة ما من قصائد أحد فحول الشعراء المختارين من قبله، ومن بيت الشعر المنتقى هذا يدخل إلى شرح القصيدة ومعارضتها وذكر شاعرها وعصره إلى آخره.

وديوان "علمتني الحياة"، وهو من أواخر ما نظم الشاعر "أنور العطّار" من الدواوين الشعرية، وهو عبارة عن خلاصة تجربته في رحلة حياته، حيث ضمنه رؤيته وفهمه وفلسفته للكثير من الجوانب العقائدية والوطنية والأخلاقية والجمالية التي صاغها جميعها بحلة بهية من شاعريته المرهفة وإبداعه اللغوي العالي، وقد كتبها على شكل رباعيات كرباعيات "عمر الخيّام" المشهورة من الإرث الأدبي الفارسي، حيث تنتظم كل رباعية منها فكرة واحدة يبتدئها بالشطر الأول من كل رباعية بـ: علمتني الحياة أنّ حياتي ... ولو شاء القدر في أن تطول حياة الشاعر أنور أكثر من مشيئة الله له، لكان هذا الديوان أكثر تنوعًا، وكثافة، وإغناءً ... وأود أن أذكر للقارئ إحدى الرباعيات الشعرية التي تتضمنها مخطوطة ديوان "علمتني الحياة" ، والتي يصف الشاعر أنور فيها كبير عمق حبه لأرضه وافتتانه ببلاده وهي:

علمتني الحياة أنّ حياتي ملكُ
أرضي عزّت على الدهر أرضي
من ينابيعها تعلمتُ قرضي
من شَحاريرها تلقيتُ شـدوي
فجرتني هوى فبُغضي حُبٌّ
يا لحب ما إن يلمُّ ببغض
هي نجواي إن جنحتُ لصحو
و الخيالاتُ إن جنحتُ لغمض

ومن نثر أنور العطّار: كتاب "الوصف والتذوق عند البحتري" و "أسرة الغزل في العصر الأموي" وله دراسة كاملة لنثر أمير الشعراء أحمد شوقي ولكتابه "أسواق الذهب"، وكتاب "الشوقيات التي لم تنشرها الشوقيات".

ومن بواكير مسرحياته الشعرية المخطوطة: مسرحية آخر ملوك العرب في الأندلس "أبو عبد الله الصغير" سنة 1930م، ومسرحية "مصرع أبي فراس الحمداني" سنة 1961م، وقد تعرض للحديث عنهما الأستاذ "عدنان بن ذريل" في كتابه "الأدب المسرحي في سورية".

وله أيضًا دراسة عن الشاعر الباكستاني "محمد إقبال"، ودراسة عن شاعر الهند العظيم "طاغور".

ترجمت بعض قصائد الشاعر أنور العطّار إلى الإنكليزية في كتاب (الشعر العربي الحديث - أزهار الشعر) للمستشرق الإنكليزي وأستاذ الأدب العربي في جامعة كامبريدج "آرثر. ج. آربري Arthur J. Arberry"

وترجمت أشعاره أيضًا إلى الفرنسية في كتاب (مختارات من الأدب العربي المعاصر) لأستاذ العربية في جامعة السوربون في فرنسا المستشرق "إدوارد تاراباي Edouard Tarabay" و"لوك نورين Luc Norin".

وله من الكتب المدرسية: كتاب "الزاد" في الأدب العربي، وقد صحح و نقح لغويًّا قصصًا مترجمة للعربية من المقررات المدرسية منها قصة "جودي والطفل".

وبالاشتراك مع الأستاذ "نسيب سعيد" ألفا كتاب "الخلاصة في الأدب والنصوص"، وهو تغطية أدبية ملخصة من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث مناسبة للتلامذة وهم على مقاعد الدرس.

وقد ضُمن اسم "أنور العطار" في الموسوعة التوثيقية للشخصيات العربية في مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض في المملكة العربية السعودية، تكريمًا لتلك الشخصيات التي عملت وشاركت في بدايات النهضة

صورة تجمع الشاعر أنور العطار (يمين) مع الشاعر ميخائيل نعيمة في ستينيات القرن الماضي بدمشق

صورة تجمع الشاعر أنور العطار (يمين) مع الشاعر القروي سليم رشيد الخوري في ستينيات القرن الماضي بدمشق

الثقافية والحضارية في المملكة.

ترك الشاعر أنور بعد وفاته في مكتبته الخاصة في داره في دمشق، المئات والمئات مما جمع وما أُهدي إليه من أعلام الفكر والأدب المعاصرين له في حياته من كتب ومخطوطات ودواوين من عيون الأدب العربي والأدب العالمي وعلى الأخص الأدب الفرنسي، بالإضافة للكثير والكثير من الدراسات والمراجع الأدبية والتفاسير وكتب الفقه الديني، مع الكثير من الأوسمة وكتب التقدير لشعره وأدبه.

كتب وحاضر وترجم عن الشاعر أنور العطّار الكثير من الأدباء و الشعراء والباحثين والإعلاميين، وكانت سيرة وأدب أنور العطّار موضوعًا لأطروحات لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي في عديد من الدول العربية، كما كانت دومًا أشعاره في المقررات المدرسية في سورية، وبعضًا من الدول العربية الأخرى.

وديوان الرباعيات هذا ما هو إلا دوحة باسقة الأشجار، ريّانة الأغصان، ندية الأزهار، تمثلت في رباعيّات شعرية رائعة السبك عميقة المعنى، اختزل بها الشاعر المبدع أنور العطّار في أسلوبه الشيّق الأخاذ الذي كان فيها نسيج وحده أفكاره ومشاعره وفهمه و فلسفته للحياة، فخرجت توثيقاً لتجاربه في الحياة، وسجلاً لمخالطته الأحياء ... لذا صدر جميع هذه الرباعيات بقوله: "علمتني الحياة" أو "علمتني" ، فضلاً عن أن الديوان بحد ذاته يحمل هذا العنوان و من ثمّ كان الشعر لدى الشاعر خير معبر عن تجاربه وخير ناقل لها وخير أمين على مكنوناتها : ظناً وحدسًا، شكاية وأنسًا، سرًا وعلنًا، كل ذلك نراه مجسدًا في هذه الرباعية السينية من رباعياته الشائقة يقول:

علمتني الحياة أنَّ من الشـــ
ــعر لساناً يعي أحاديث نفسي
مفصح عن تجاربي ترجمان
صادق في أداء ظني و حدسي
إن تشكيت كان باب شكاتي
أو تسليت كان مفتاح أنسي
لم أحاول إخفاء نفسي عنه
فهو سري الذي أصون و همسي

ولقد اختار الشاعر أنور العطّار لكلّ رباعية عنوانها وموضوعها المتفرد والمميَّز فجاءت كلّ واحدة منها ماتعة القراءة، متشحة بجمال الكلمة وانتقائية العبارة، متضمنة عمق الحكمة ، و مغلفة بثراء المعرفة ...

وقدمها مغلفة بحلة بهية من صنعته الشعرية الحاذقة، وملكته الأدبية الأخاذة، فكشفت عن تملك الشاعر لناصية القريض و لملكته الشعرية المرهفة ...

ولنستمع له هنا في هذه الرباعية التي تعكس مقدارَ كبير حبه لأرضه ولتملكها لجميع مشاعره وعواطفه ومن كون ينابيعها وشحاريرها هم الذين من علموه الشدو والشعر، وكيف أنها قلبت مشاعر البغض عنده إلى مشاعر الحب، و كيف أنها هي التي يناجيها في نهاراته و يراها في لياليه و أحلامه يقول في رباعيته :

أرضي الطيبة

علمتني الحياةُ أنَّ حياتي
ملك أرضي ،عزتْ على الدهر أرضي
من ينابيعها تلقيتُ شدوي
من شحاريرها تعلمتُ قرضي

صورة للشاعر أنور العطار (يمين) يصافح الشاعر إلياس فرحات، ويظهر في يمين الصورة أمير الكويت الشيخ مبارك الصباح في ستينيات القرن الماضي بدمشق

فجرتني هوى فبُغضي حبٌّ
يا لحُبٍّ ما إن يُلِمُ ببُغضِ
هي نجوايَ إن جنحتُ لصحو
والخيالاتُ إن جنحتُ لغَمَضِ

و عن الأيام يقول :

الأيّام

علمتني لحياةُ أنَّ من الأيَّ
ـام ما يُسعدُ النفوسَ ويرضي
ويصّبُ النعيمَ صَبًّا ، ومنها
ما يثيرُ الأسى ويُضني ويُضوي
كُلما مرتِ الليالي عِجالاً
خِلتُ أني أمُرُّ وحدي وأمضي
آذنتنا بينها مُتعُ العيـ
ـش وهمّت أحلامُها بالتقضي

أما حنينه لدياره فنراه مجسدًا في هذه الرباعية التالية :

الحنين إلى الدار

علمتني أنّ الحنينَ الدَّا
ارِ غرامٌ مُأججٌ في ضُلوعي
إنْ طافَ بالفكرِ بلبلت الفكـ
ـرَ فيا دارُ أنتِ سِرٌّ وَلوعي
إنها الأهلُ والأحبةُ والصَّحْـ
ـبُ ومَسرى تلفُتي و نزوحي
هاجتِ النفسُ فاستفاضت أنينًا
وتراءت في واكِفاتِ الدموعِ

وفي المحبة شفاء عند الشاعر أنور فهي طبُّه و طبيبه يقول :

المَحَبَّةُ شِفَاءٌ

علمتني أنَّ المَحبّةَ طِبٌّ
وسبيلٌ إلى الشفاءِ ودربُ
يتداوى بها الأُولى نَشَدوا البُرْ
ءَ وأشقاهم من العيش كَربُ
أنبلُ الحبِ ظاهرًا وخفيًا
أنَّ يموتَ المُحِبُّ فيمنْ يُحبُّ
يا لنفسٍ ترعى على النفسِ نفسًا
يا لقلبٍ يحييهِ في البُعدِ قلبُ

زَهْرُ الْخَرِيفْ

مصطفى أحمد أخرس
ادلب - سوريا

أَوَّاه منْ زَهْرِ الْخَرِيفْ !
أَنَّى لقَلْبٍ مُدْنَفٍ
يَنْسَى
بأَنَّ الْخَافقَ الْوَلْهَانَ
ذَاقَ الْمُرَّ منْ حَرِّ الْمَصيفْ

وَ بأَنَّ تلْكَ الْمُهْجَةَ الْوَلْهَى
بَكَتْ أَلَمًا
وَ قَدْ أَوْدَى بهَا
سحْرُ الْعُيُونِ الذَّابلَات
بِمُقْلَةِ الظَّبْيِ الظَّرِيفْ

وَ بأَنَّ آهَات الْفُؤَاد
يَؤُزُّهَا
هَمسَاتُ ذَاك الْوَجْدِ
منْ رَعْشِ اللَّمَى
يَا للَّمَى
منْ ثّغْر ذَيَّاكَ اللَّطيفْ
هَمْسٌ يَهُبُّ عَلَى الضَّعيفْ
سحْرٌ وَ مَنْفَثُهُ وَجيفْ
وَ الْقَلْبُ يَنْفُثُ أَنَّةً
كَتَنَفُّس الْوَاهي النَّحِيفْ
وَ رُؤًى تَطُوفُ
يَحُفُّهَا تَحْنَانُهَا
يَا لَلْحَفِيفْ

هيَ مَا أُعَاني
مَبْعَثُ الآهَاتِ
منْ حُبِّي الْأَلِيفْ
بَلِ الْعَفيفْ
بَلِ الشَّرِيفْ

يَا لَوْعَةَ الْكَبد الْمُلَوَّع
وَ الْهَوَى حُرٌّ نَظيفْ
يَا لَوْعَتي
وَ الْحُبُّ للْمُشْتَاقِ
مَنْزلَةُ الرَّغِيفْ
يَا لَوْعَتَاهُ
وَ إنَّني
في كَوْكَبِ الشَّرْعِ الْحَنِيفْ

يَا لَوْعَتي
لَوْ رَفَّ هُدْبُ اللَّحْظِ
يَطْلُبُ نَسْمَةً
فَلَعَلَّهَا
نَجْوَى رَفيفْ
أَوْ أَنْ أَظّلَّ عَلَى الرَّصِيفْ
مُنَاجِيًا
أَمَلَ الرِّضَا
في عَتْمَة الدَّرْب الْمُجَلَّل بالضَّنَى
بَيْنَ الْهَوَى وَالنَّفْسِ وَ الشَّيْطَانِ
في قَاع الدُّنَى
أَمَلٌ طَرِيفْ
زَهْرُ الْخَرِيفْ

Obeikandl.com